

الجزء الواحد والعشرون

يوسف العاني



تأليف

حميد المطبعي



اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 06 / صفر / 1444 هـ
في 02 / 09 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة .
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الجزء الواحد والعشرون

يوسف العاني

تأليف
حميد المطبعي

الطبعة الاولى ـ لسنة ١٩٩٥

هذه الموسوعة ..

منذ ربع قرن انصب تفكيري في تأليف هذه الموسوعة ، وانقطعت الفكرة ثم بدأت الآن ، وهذه الموسوعة لها صفة هي غير صفة الموسوعات الصادرة في تراجم الأعلام ، وصفة هذه الموسوعة ، هي انها تلم بالأعلام إلماماً متكاملاً ، في النفس ، وفي البنية ، وفي هذه العناصر التي تركب الكاتب أو المفكر تركيباً ، يراعى فيه ، التسلسل المنطقي لولادة الشخصية ، والتطور التاريخي لأفكارها ، وكانت موسوعات هذا العصر ، أو العصور السالفة لا تغطي إلّا الشكل الخارجي للأعلام ، كتبهم وشهادات ميلادهم او وفياتهم ، بمعنى ان الكتابة عن الشخصيات الثقافية في تلك الموسوعات لا تخرج عن التراجم ، التقليدية ، وكأن الكتّاب والمفكرين هم شخصيات نمطية ، ولدت وعاشت كأي سياق بشري آخر ، مع ان تاريخ التراث كان يحدثنا باسهاب عن أهمية ونبوغ واستثنائية قوافل الفكر في الحياة العربية ، وهذا التفرد الذي يتميز به المفكر العربي عبر عصوره ، جعلني أفرد له في هذه الموسوعة المساحة المنطقية المتوازنة مع دوره في التاريخ ، فأتحرى وقد تحريت عن مكوّنات الكاتب النفسية وصلاته بالآخرين ، ودوافعه الغريزية للكتابة والابداع ، ثم قمت بمجادلة آرائه وأفكاره ، تبعاً لسياقه التاريخي ، ووضعت هذا الجدل في خدمة هدف الموسوعة ، وهو أن يكون القارىء في صميم

المترجم له ! فيصل إليه بلا جسور ، ويتعرف الى رؤيته أو فلسفته بحيوية حواسه ، وحتى لا يبقى بين القارىء وهذه الشخصية المترجم لها ، أية عقدة من عقد الفكر الغامضة .

لقد وجدت الموسوعات القديمة والموسوعات المعاصرة في تراجم الأعلام ، لا تقدم إلا اعلاناً عن الشخصية ، لا تشرح فيه فكراً ولا تفلسف فلسفة ، فهو مجرد اعلان عابر ، أو طيف صامت لا يدور أو ينفذ إلّا في المسام المظهرية للشخصية ، فهو إذن اعلان مجحف بقيمة وعظمة المفكرين والكتّاب الذين أسسوا لنا مجتمع القيم ، وبنوا في محيطنا السلّم المثالي لمجتمع عربي ، مفكّر ، عاقل ، يدرك ويعقل مطالبه الحضارية ، طبقاً لانجازات العقل التركيبي الذي تتصف به فلسفتنا في الحياة .

واخترت ، أن تكون هذه الموسوعة ، شاملة في مقاصدها ، لان مفكرنا شامل في أفكاره ، وشامل في تصوراته وأحلامه وأشواقه ، وأنا لا بد من أن أكون شاملًا مع الشخصية التي أبتغي ترجمتها ترجمة متكاملة ، فأوجه لها نقداً يأخذ في سياقه العام ، الطابع الاثنوغرافي ، وهو الذي يتصل بحياة الشخصية الاجتماعية ، وأدخلها في الدراسة الاثنولوجية ، وهي الدراسة المقارنة الباحثة في علاقة الشخصية مع محيطها البيئي أو الحضاري أو السلوك الجمعي ، وكما هو ثابت ، فان القارىء العام بحاجة دائماً الى مدلول منطقي

استدلالي لمعرفة أبعاد المفكر العربي ، ومستوى علاقته بالحياة ، وفي مختلف شؤونها العقلية أو الانثروبولوجية ـ التاريخية .

وكنت في كل تراجمي لهؤلاء الأعلام ، متعاطفاً معهم ، إلا في حالات ، أرى فيها الكاتب يشذ عن مقياس احصائي ، أو يقف موقفاً متذبذباً بإزاء قضية ما من القضايا التي تشغل ذهن الحقبة الزمنية التي نرتادها ، فأحاول فيها ، أو أتواصل وهذه الشخصية التي أبحث فيها ، الى قناعة مشتركة من الحسيات العامة ، حتى نجعل هذا القارىء الذي يقرأ هذه الموسوعة ، متداخلًا ، كاشفاً ؛ لا متفرجاً في سديم ، مع هذا أرضيت نزاهتي في أعلامنا ، وأديت الزكاة لتاريخهم ، فنحن كلنا ، مدينون لأعلام العراق ، فيما أبدعوا من علم ، وفيما أنتجوا من عقل ، وفيما أرادوا أن يكملوا الشوط الطويل الذي ابتدأت به مدرسة بغداد في التاريخ ، وفي بناء التاريخ الانساني .

لم أتبع في هذه الموسوعة النهج الأبجدي ، أو الانتقائي لأعلام العراق ، وإنما نهجت فيها نهج البحث في الشخصيات البارزة في التاريخ المعاصر ، كلما توفرت في هذه الشخصية أو تلك ، مصادري في دراستها والتبحر في مظانها ، وكنت في هذا النهج ، أبتعد عن النمطية التي اتسمت بها الموسوعات القديمة والتراجم المعاصرة التي خلطت في المفكرين خلطاً ،

وباعدت وقربت فيما بينهم تحت ثقل السياقة الأبجدية ، التقليدية ، الصارمة ..

وأرى انني أول من ابتكر هذا النهج في تاريخ العمل الموسوعي العربي ، وأول من ابتدع النواة العلمية ـ الموضوعية لمؤرخ المستقبل الذي سيجد إن طال بي الصبر في تراجم أعلامنا ، سِفراً خالداً ، زاخراً بصور التاريخ والمواقف والأحداث ، يمكنه من أن يدرس فيه ، حياة مجتمع أو حقبة تاريخ من هذا المجتمع ، أو حالته العقلية التي تبلورت عبر جهد إبداعي تركيبي ـ تاريخي .

وآمل أن لا يكفرني مؤرخ المستقبل في شيء فعلته في هذه الموسوعة ، فقد جهدت ما استطعت الى ذلك سبيلًا ، ثم تنزه بي الهدف !

حميد المطبعي
بغداد ـ ١٩٨٨



الفصل الأول



فنان بالوعي
صنع شخوصه من
حياة الشعب ..



حينما وقف يوسف العاني في مهرجان قرطاج المسرحي سنة ١٩٨٥ ، ليتوج رائدا من رواد المسرح العربي والافريقي ، بكى من فرح ماضيه ، اذ تداعت امامه وفي لحظة ، صور الماضي كلها : كيف نسج من ماضي الشعب قصة كفاحه الطويل ، قصة بدأها منذ منتصف الاربعينات ، من مسرح الازقة الى مسرح القاعة الى مسرح الاذاعة والتلفزيون ، حتى غداً هو يوسف نفسه ، دراما شعبية ، تذكرنا بتاريخنا كله في الاربعينات والخمسينات وهو في نظر المنصفين والنقاد ، فنان يحترم ماضيه وحاضره ، وفي نظر جمهوره : وطني فنان وانسان ، يحترم سيرته وتراثه وكل عطائه ..

عرفوه فمنحوه لقب رائد ، واي رائد ..

كان هو وقليلون يبنون مسرحا نظيفا ، في شوارع مكتظة بالبؤساء ، وفي مدارس وكليات تزدحم بشعارات الوطن والتحرير والمقاومة ، يحرضون وينتقدون ويعرضون صور الحال ، وكان مسرحهم ينبض بالفعل والحركة ، وبينهم يوسف يمد عنقه الى امام دون وجل لانه كان مؤمنا بقضية ، كان عليه ان يؤدي دورا مزدوجا رائعا : دور الممثل الفنان ودور السياسي الفنان ، وفي مهمة واحدة : ان يكون دمه ثمن الحرية .. ولما ترصده الاذناب ، ولما خبروا وقع قدميه ، قاوموه تيارات : تيار الاغراءات لاحد لها ، لكي يضعفوه ، لكي يضعع ، ويتحول الى الموقع المضاد ، وتيار المناصب التي

يسيل لها اللعاب ، وبعض منها يندى له الجبين وتيار اخر : يحاربونه بشتى الوسائل ، حتى يحرموه من ان يقف على خشبة المسرح ويقول : من هنا طريق بلادي ..!

ويستحق يوسف منا ، ان نكرمه ان نمجد صراعه في ذلك الليل القديم ، ان نخصص له عددا من مجلة في البحث عن خمسين سنة زرعها بالدم والقرنفل ليبقى شاهدا على لسان ساحر اثار صراعا والهمها الصبر ويستحق منا ، ان نتابع بعد ذلك : قصة ميلاده وميلاد فجره ..

قدره الاجتماعي

قالوا له : ولدت في الصيف .. كانت امك تنام على السطح ، وقالوا ، انه ولد بعد احد عشر شهرا من الحمل ، وانه كان جميلا جدا ، ولهذا السبب اختاروا له اسم : (يوسف) ... وفي بيت بسيط تتوسطه نخلة باسقة بمدينة (الفلوجة) كانت ولادته ..!

ابوه (اسماعيل عبدالملا لطيف) كان «تتنجياً» يبيع السكائر وفي الوقت نفسه كان إماما لجامع الفلوجة ، والى هذه الساعة لم يعرف يوسف متى جيء به الى بغداد ، لكن سنة ميلاده بالقياس لمن ولد معه في تلك السنة تشير الى عام ١٩٢٧ وبحسب الوثائق المتوفرة .. وفي بغداد كان يحبو ويتمثل الصور التي امامه : الغرفة ، السرير الذي نام عليه



ابوه ، وبنت تقف قرب رأسه ، وبنت اخرى اسمها (صبرية) كانت تحدق في لا شيء ، ويوم ارجعوه الى الفلوجة ، لمدة وكان طفلا طرياً ، كان ابوه قد فارق الحياة ، وترك ، في قلب ابنه ذكريات مأساة اليتم ، فما احلى هذه المأساة في فم يوسف فقد علمته ان يصنع غده بيديه ، وان يصطدم بالحياة الصعبة القاسية اصطداما حقيقياً ..!

وادرك في بغداد حياة الطفولة في بيت صغير في (سوق اللبن) وهو جزء من سوق (حمادة) بجانب الكرخ ، كان يعيش معه امه واخوه من امه (امين) وأبنته اخته من امه (سنية) التي رعته وتوافرت على تنشئته بسبب كبر امه وهزالها فقد كان آخر العنقود «بزر الگعدة» بينما له من امه اخوان : عبدالغفور وامين . ومن ابيه : اخ هو عبدالوهاب ، واختان : بدرية وصبرية ، اي ان اباه قد تزوج مرتين وتزوجت امه مرتين ايضا .. وزواج ابيه كان من خالته في الزواج الاول ، وعندما توفيت تزوج ابوه من امه فكانت الزوجة الثانية ..

* * *

في الخامسة اخذوه رغما الى الكتّاب وكان يحمل نصف كيلو من (الخوخ) وحين طلب (الخلفة) منه اكثر من واحدة (وكان يوسف يحب هذه الفاكهة) رماها كلها في وجهه ، وخرج من (الملا) هاربا ، ولم يعد الى الكتاب ثانية .. حتى اذا نضجت



يوسف العاني : طفلا مع والده اسماعيل العاني

طفولته في السابعة سمع نداءً من امه : يا يوسف .. اليوم تذهب الى المدرسة ، خذ البدلة الجميلة واذهب مع عبدالوهاب .. وها هو الان في مدرسة دار السلام الابتدائية ، تجيء وتذهب نظرته الى الحشد غريبا يجيء ويذهب غريبا ، وفي الصف لم يكن يميز بين التلاميذ والمعلمين ، عالم غريب يدور في رأسه . من القى به في هذا الخضم حتى استقر به الحال واطمأن الى نفسه ، يوم رأى في اليوم الثاني قريبه عبدالوهاب يقرأ شعرا في ساحة المدرسة ، ويصفق له التلاميذ والمعلمون ، وهو ايضا صفق له بحماسة كبيرة ، كان ينتصر على غربة لا يعلم من اين جاءت اليه ..!

في الصف الثاني الابتدائي اخبروه ان امه تتأوه من مرض شديد ، وعندما وصل البيت رآها محمولة الى مستشفى المجيدية ، ومشى خلفها ولم يحتمل ان يبقى في مستشفى فعاد الى بيته في مساء كله عواصف وامطار ..

وبعد عدة أيام سمعت زوجة خاله صراخاً من بعيد ، فتحوا الشباك وسألوا مشاهدا من المشاهدين :

ـ عمي .. خير ..

قال : واحدة جيء بها من المستشفى .. ميتة !

خرجوا الى (الدربونة) رأى يوسف عددا من اقاربه يتجمعون بينهم اخوه امين واخوه الكبير عبدالغفور وعمه ابراهيم ولما رأوه بكوا ..

صاح امين :

- ويوسف شلون ؟!

صاح اكثر الواقفين :

- يوسف يظل عدنه !!

وبعد ان اغدق الكل عطـ... (صديقة) زوجة اخيه ، فهي حبيبة صباه وطفولته وامه ... رعته كما رعت ابناءها .. وينتقل البيت الى محلة (خضر الياس) وهي بالكرخ تطل على نهر دجلة ، وامام بيته حديقة مارس فيها نشاط الطفولة ، كان لا يترك ساعة الا ويحدث هذا ويتكلم ولا يتكلم الا بحركة ، حركة تمثيل ببراءة ، حركة العاب تقترب الى التمثيل يحاكي ويشبه ، يحاكي اصوات الاخرين المشهورين ويحاول ان يتقن الشبه فنجح اتقانه لحركات الرجال المعروفين في المحلة والمدرسة والاسرة ، حتى عندما يقرأ شعرا في الابتدائية ، تراه محاكيا شعراء كان يسمع قراءاتهم في المآتم والافراح ، لا يدري في اي شكل وبأية وسيلة جاءت اليه المحاكاة ، حتى معلمه علي القزويني في الرابع الابتدائي سأله : من علمك التمثيل كان يقول له : من الناس اي ان يوسف منذ الرابع الابتدائي عرف بمدرسته او بمحلته ، انه ممثل لأنهم شاهدوه يمثل دور يوسف الطحان الموجودة قصته في القراءة الخلدونية .. ويوسف العاني كلما تذكر يتذكر هذا الحدث او هذه الولادة المسرحية وجدناه يعيد

صياغة ماضيه بما يشبه الوثيقة لتاريخ بداية تجربته :
كنت طفلا ، احبو ،
مات أبي وانا طفل احبو ..
الصورة تملأ ذاكرتي حين مات ابي ،
فارقت امي ،
كانت شهادة نجاحي بيدي .
وثيقة فوز عندي
الثاني في الصف الثاني
كنت في الثامنة ، بدأت احب واهوى وحدي
فالعالم متسع حولي ، واخي صار **أبي**
وزوجته صارت امي ،
تحمل همي ،
تمنح كل (شطاراتي) الحق لكي تكبر .
حتى نزواتي ، كل صباباتي صارت تكبر
وذات يوم :
وثبت على كرسي عال اصرخ بالصوت العالي **لا** مثل :
«يامطحنتي يامطحنتي»
هاكم اسمي
اسمي يوسف
اسمي الطحان يوسف
يامطحنتي يامطحنتي ..!»



عدّ لكي يدخل المدرسة الابتدائية !

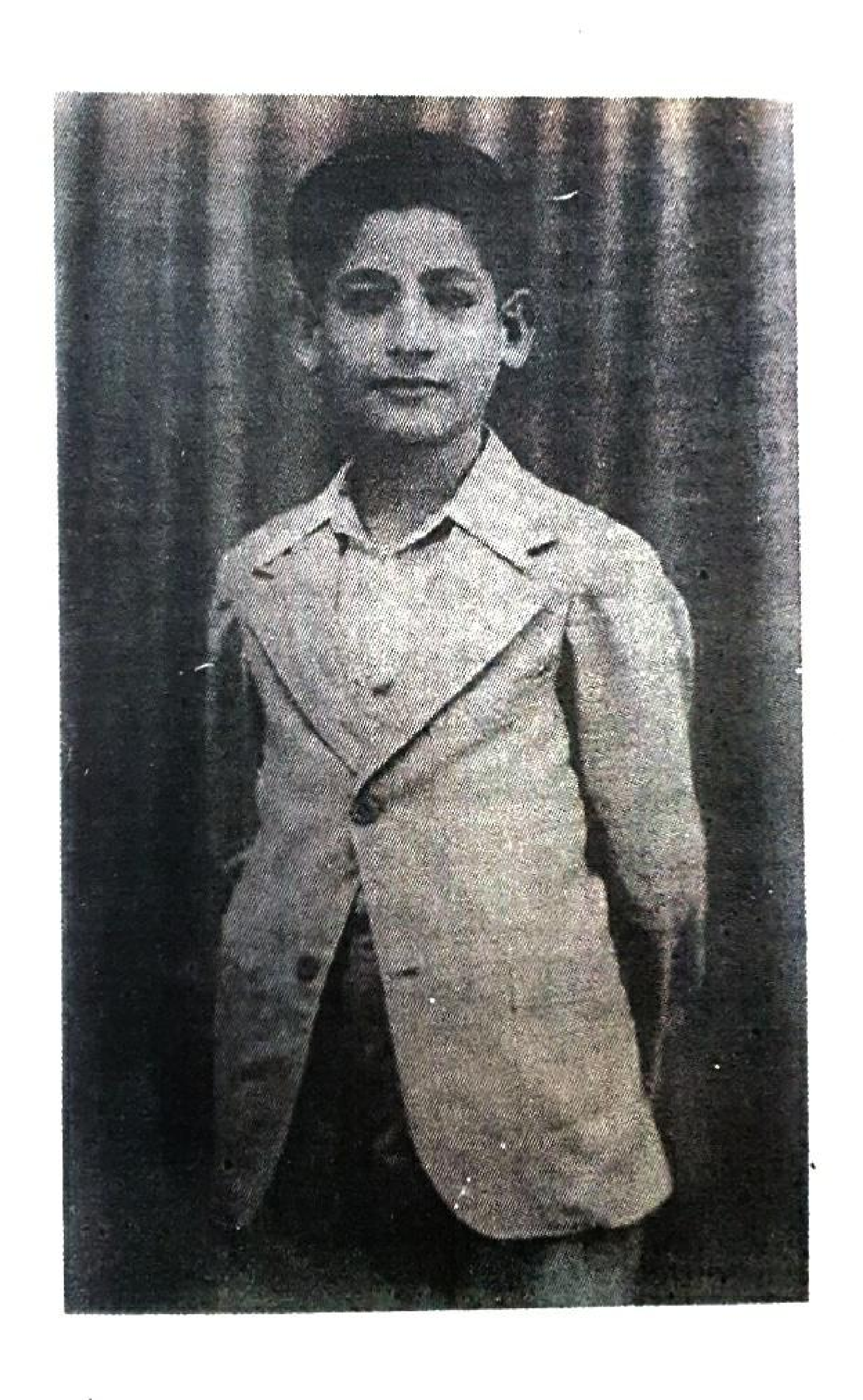
قالوا : اعقل
قالت امي : مثل
قالوا : زد علما ، زد درسا واعقل
قالت امي : مثل والعب
لكن لا تتعب
انت الشاطر ، انجح وتفوق
اعلم ان الماء بلا لون
ولون البحر أزرق
اعشق لعبك ، واعشق حبك
مثّل
ورحت امثل !!

* * *

وحرية بيته هي التي حررت فيه القيد القديم ، وربما كانت زوجة اخيه تكتشف فيه مزايا الغريزة الاولى ، فاطلقت الحرية لغريزته فأيعنت في التمثيل ، او ربما كان (اليتم) سببا في احتضان زوجة اخيه لمواهبه وهوايات الطفل الاولى ، ساعده في ذلك ايضا : رفاه البيت ، فقد كان البيت الذي احتواه يعيش حالة ترف ونعيم واضحين ، وكانت في البيت اسرة كبيرة رب الاسرة عمه : توفيق الخانجي (صاحب الخان المعروف في باب السيف) .. والتاجر الذي حمله الناس اسما كريما في سوق التجارة .. ويظهر ان جزءاً كبيرا من تراث

يوسف يرجع منبعه الى عمه الذي رسم لبيته القيم والتقاليد واراد ان تكون سيرته (قدوة) لابناء بيته وكان دائما يقول لهم : (ينبغي ان يكون كل واحد في بيتي نظيفا في قلبه ولسانه) فالحياة كفاح شريف ، هكذا كان يرى الدنيا ، وهكذا علم يوسف الامثال والحكم والمأثورات ، وجاءت الحرب العالمية الثانية وارتفعت الاسعار وبرزت ظاهرة السوق السوداء وما زال خان عمه على نظافته : اسمع يا يوسف : (كل تجارة خارج الحق حرام ، اضبط الأسعار ، كن يقظا ، حتى لا ينال من سمعته المرتشون ، وضبط يوسف الاسعار كان يقظا في ان لا ينحدر مع السهولة والتلاعب والغش ، ليس لان عمه كان مؤمنا وتقيا وانما كانت في يوسف تنمو غريزة الفقراء .. وهؤلاء الذين تنشأ فيهم امثال هذه الغريزة منذ الصبا هم وحدهم يحافظون على الموازنة الدقيقة بين القلب والحياة ، هو رأى الفقراء في بيته ورأى عمه يعلم الناس على احترام بيئة الفقراء ، كان ينتابه دهش لا نظير له عندما يشاهد مجلس عمه يغمره وزراء وتجار ونواب وهم اصدقاؤه لا يشبع نهمه الا في الجلوس بين الحمالين في الخان او بين اصحاب الزوارق (البلامة) في مقهى احمد الجداع ، وكأن يوسف كان يرى في هذا (التناقض) حياة المحبة الحقيقية في عمه : التواضع والبساطة وعذوبة الذات ..

* * *



... وسأله معلم الابتدائية : هل يفيدك
التمثيل ؟ قال له : أمثل ... أمثل ...!

كان في صباه يحلم بمستقبل جميل ، يقرأ بعين رومانسية لكنها رومانسية تنحاز الى حزن اليتامى والضعفاء ، كان في كل صباح يرى هؤلاء في عين الحمال مجيد ، يبكون وينحون على عالم منقسم لاقوة فيه الا قوة الاغنياء والمترفين والمستغلين ، لكن يوسف لا يضعف في قراءاته الرومانسية ، وانما اتخذها وسيلة للبحث عن منابع الدموع ، وطالما هذه الدموع بللت قلبه وجعلته رقيقا حساسا يمتص آهات الدنيا في مجتمعه ، وانما اراد من هذه الآهات ان تفجر احساسا جماعيا بوسيلة المسرح ، وما نشأ مسرحه الا في بداية هذا التحسر والفجيعة .. تحسر محسوب وفجيعة محسوبة ، كلاهما ينتميان الى واقع المجتمع في الخمسينات ، ومنها صنع يوسف الرفض **والرفض** والتحريض على البؤس ، وجعل شخصياته المسرحية تنوح وتبكي بوعي الرفض والتحريض !

افقه الحاضر

هل ندم على خمسين سنة ، قضاها بين القلم والتغرب وهموم الفقراء ؟ هل كان نوحه وبكاؤه عبثا ؟ ومن ثم : رفضه وتحريضه على هدم (القديم البالي) ، لا .. اقول انه انتصر وبنى لنا مسرحا اسمه : (مسرح العاني) مازال هذا المليون الذي شاهده و(تعاطف) مع شخصياته يراه في اعماقه ، طيفاً او تاريخا ، عبرة او تذكرة ، وعيا او جهادا ، المهم ان

يوسف مازال يحمل وساما يذكره بعظمة الدور الذي اداه ، ومادام هذا هو زهوه الوحيد في الحياة فلا بد ان يبقى هذا الزهو في اعين عشاقه دائم الخصوبة ، فاجتهد ان يديم صلته مع عشاقه وجمهوره ، يكتب ويمثل ويصنع له كوة يطل منها بين حين على عالم ناطق عاقل ، مدرك لاهمية يوسف العاني ، ومدرك لفضيلته التي جعلته يزيد ويغني ويثري ماضيه ..!

الان ، يمثل في المسرح ويكتب للمسرح ، ويمثل في السينما ، ويكتب للتلفزيون في بعض االاعمال ، ويكتب في كل اسبوع في باب (شؤون وشجون مسرحية) بجريدة الثورة ، ويكتب في باب الثقافة والسينما بجريدة الجمهورية ، وله باب ثابت في جريدة القادسية تحت عنوان (شخصيات عرفتها) واثناء ذهابه الى هذه الصحف يلتقي باصدقائه القدامى وهم سياسيون قدامى متقاعدون واساتذة الجيل الاول وشيوخ كانوا فيما مضى رؤساء «لمجلات» بغدادية ونقابيون كانوا في زمن يقودون تظاهرات شعبية في عهد نوري السعيد وغير اولئك ممن حمل الراية في تاريخ معلوم ، يناقشهم ويذكرونه بحبهم اليه ، وهو ايضا بلباقته يذكرهم بمآسي الامس ويضحك ملء عينيه بينما عقله يتأمل في حال الدنيا ، تعب .. تعبت اعصابه ، لكنه لا يدع المقادير تمشي كما تشاء المقادير ، فحين يشعر بهذا التعب القادم ، يصارعه بالحركة والجهد فيصرعه ؛ اذ هو لا يترك فراغا في وقته ، كي لا تتجمع

الاضداد ، فيحسبه الآخرون ضعيفا ، او تحاول هذه الاضداد ان تصرعه ، هو من النمط الذي يتعمق في تأملاته ، حتى يجد (البديل) عن الحالات اللاانسانية او اللامنطقية ، او هو من النمط الذي يتعامل مع الحياة تعاملا دراميا يحول الخير الى نور والانتصار الى قضية والانسان الى شكل آدمي مقدس ..!

في تأملاته يعيد تركيب ذاته ، وبصوفية احيانا ، او بمراجعة نقدية للنفس كما يقول السياسيون ، يتساءل في صمت رهيب : ماذا قدمت ... وماذا اعطيت ، هل كانت اخطاء في حياتي ، فاذا وجدت اخطاء فكيف اعالجها ، بطريقة رياضة النفس ام بطريقة نقد الوعي ، يلقي هذه الاسئلة على نفسه ويصحو .. فاذا هو قد غير شيئا من خطأ ، كان في زمان ليس خطأ ، اي انه يقيم عقله الجديد على انقاض عقله القديم ، فينتشي نشوة الروح ، انه الآن ابدل حالة عن حالة ، لأنه من الافراد الذين كلما خبروا الحياة خبرة عقلية اخضعوا معارفهم للتجربة ، التجربة مقياس يوسف في نقد الوعي والعقل والماضي ، والفنان الذي لا يختصر الزمن بولادة الحالات الاضافية هو فنان يكرر عواطفه ويسقط في ثغرة حادة ولا يجد نفسه الا نسخة مكررة ، لا تنفع جيلا ولا تنفع تاريخا ، ولو كان صديقه جواد سليم حيا لرسم يوسف في بداية لوحة عنوانها : الجدل والتحدي ..!

بيته

ويستسلم الى اتعابه ويعود الى بيته ، وعينه لا ترحمه ، فقد أتعبها الزمان وبسببها سقط في نتيجة الفحص الطبي يوم اعتزم الانتماء الى كلية الطب في الاربعينات ، وبسببها ايضا قلت قراءاته للكتب فاستعاض عنها بالتأمل الكثير .. وبيته : شقة جميلة مزروعة في قلب الشمس ، بين النهر والريح ، اظنها جاءته هبة ، لسمعة في مسرحه ، وسمعة في جمهوره ، لكن هذا البيت لا يحتويه الا قليلا مع زوجته وابنته الوحيدة ، وكلما حاول غلبته حرفته ، فانقاد الى طبيعته في الفن والقراءة ، قارئا يقرأ وكاتبا يكتب ومشاهدا يشاهد الفن في الشاشة ، واذا بزوجته وابنته تندمجان في طبيعته ، راغبتين او غير راغبتين ، ويستحيل البيت الى (محراب) لا يستوعب روحه الكلية اولا ، او يتحول بيته الى مكان عمل بدون متطلباته ، فكتبه قد وزعها على ابناء اخيه ، حتى ارشيفه وزعه توزيعا !

الموسيقى هي احدى (هواياته) في البيت ، والمناقشة في امر من امور المسرح هواية اخرى ، فيعرض هو وزوجته وابنته موضوعا من موضوعات المسرح او السينما كل يوم ، ويدور حوله النقاش ، ويدوم النقاش ربما اياماً ، ورأى يوسف في هذا (العرف) نافذة يطل على رياضة العقل ، وفي المساء يستمع الى نشرات الاخبار ، ويلتقط الاخبار من كل وكالة ، يستمع

ولا يعلق ويتذكر ، له عادة غريبة في التذكر ، وفي تذكره يربط الماضي بالحاضر ، ثم يحزن حزنا عميقا ..!

لكن هذا الحزن لا يتعبه مثل ما كان يتعبه في الماضي .. بعد ان تجاوز يوسف (العاطفية) التي لعبت في بعض (تصرفاته) وآذته كثيراً ، تخلص من حزن العاطفة ، وانتقل الى حزن العقل ، وهو اشد الاحزان اذى على الفنانين الكبار (اصحاب التجارب الانسانية) ، فهو بعد هذه السنوات التي تجاوزت الستين صار يفكر ويعاني تفكيرا ، ويراجع عقله في ابسط القضايا ، حتى يتجنب الخطأ ، حتى لا يقوده الخطأ الى احراج او لوم او حتى همسة عتاب ، ولهذا ترى يوسف في حقبته الاخيرة يقلل من فكرة (الحماسة) في اعماله وكتاباته انه يحاسب عقله بصرامة احيانا ، ويدعو الى الاغتناء بالفكر والمعرفة والتجربة والتأمل في كل الاشياء ..!

انه ببساطة يحب كل الناس ، ويهمه الان ، ان لا يغضب عليه احد .. رقيق ومتواضع ، لكنه : (حاد) بكبرياء جاءته من مزيج من بيئته وبيئة عقله ، كيفما يتصرف يحمل الكبرياء ، حين تمس شخصيته او حين يريد اخرون ان يشوهوا حقيقته او يضعوه في المكان الذي لا يلائم ما اعطى وما ابدع وما اضاف ... واذا ما صدر منه تصرف (عبر موقف عاطفي) خارج نطاق العقل ، فأنه ينهمك في معاناة صعبة وقاسية ، الى ان يزيل اثر هذا التصرف ، فيقعد في نفسه فرحا

مطمئنا .. كثيرون ظنوا ان يوسف صعب المعشر، ومن الصعوبة الوصول اليه ، او اللقاء به لقاء وديا ، ومطاويه تشير الى خلاف ذلك ، فكم تحلو له ملاحظات النقاد ، ان كانت في ملاحظاتهم نزاهة القصد وحسن العقل ، وحين يلتقي به بعض من يظنه صعبا ، يفاجأ بحالة انسانية تستقر في نفسه ، لكنه هو صعب حقا ، صعب في ان لا يتراجع عن حقه او حين يكون الحق معه ، يدافع بأسلحة متنوعة اقواها : الرأي بمنطق ، يعني ذلك ان يوسف قوي ، وقوته عادلة استمدها من جمهوره الكثير العدد ، وكل فنان كان له مثل هذا الجمهور الكثير العدد ، البصير العيون ، انحاز اليه الرأي العام ، والرأي العام قوة عادلة بحكم انحيازه للتاريخ .. يقول عنه بعض اصدقائه : انه طفل كبير وفي مواقع معينة ، وانه اكبر من عمره بسنوات في مواقع اخرى ، وهو بين رأي وذاك لا يخرج عن لقبه الحقيقي : فنان الشعب ..!

ضعفه

وفنان اصيل ليس فيه ضعف على كل حال وفي اي حال ، لكنه يضعف او ان يوسف يهاجر اليه الضعف في منعطفات خاصة ، حين يقف الحق امامه شاخصا وهو في غفلة منه ، اذ ذاك يجد نفسه وحيدا يصيح ..

يضعف امام انسان مظلوم ..

يضعف امام الجمال .. لكن ضعفه هنا لا يسلبه شخصيته ويهدد آدميته !

يضعف امام الطفل ، فهو يحب الاطفال الى (حد) العبادة ، وهذا ماجعله يتأخر في ان يكون ابا ..

يضعف امام الدمع الساخن الصادق .. البريء ..

يضعف حين ترتفع درجة حرارته (!) فيقول كل ما في نفسه .

ثمة آلهة تتصارع في قلب يوسف ثمة ملائكة تتصارع ، ثمة جمال يتصارع ، ثمة عبيد واحرار يتصارعون ، ثمة سياسة تتصارع في قلبه وروحه ، يعذبه هذا الصراع ، لكنه ينتصر في النهاية ، لأنه امن بشعار قرأه في كتب المتوسطة يقول : كن في الوطن وفكر ما شئت . ولهذا كان يوسف يبني الوطن فوق مسرحه ولهذا كان عنيفا اذا مرت عليه غيمة سوداء ، ولهذا رفض ان يشترى يوم كان خارج الوطن بدراهم القنصليات ، او ان يكون ضعيفا امام الفاقة والسغب والوحشة والغربة وزيف القصور وبهارجها ولعان المدن واحلامها ..!

ذاكرته

وقد تكون ذاكرته احدى الوسائل التي يستلهم بها الحياة ، يستلهم بها قوته ، وتعينه على معاركه في بناء اسس الحركة المسرحية ، ومن صفات ذاكرته ، انها تقوم على (الم دفين) ،

شعور خفي بأنه الى هذه اللحظة لم يحقق ما كان مرسوماً في عقله ، فلذلك يضغط على اعصابه ليوسع خياله ، ويرهق اعصابه حتى يصبح خياله واقعا ، نراه بين ساعة وساعة يترامى الى البعيد ، ويحسب البعض انه شارد الذهن ، لا ... انه في هذا النظر البعيد يجمع قواه التخيلية ويتذكر ماضيه بقوة التخيل ، يعيد الى عينيه وعقله وجهوده العصبية الاخرى ، احداثا يستمد منها مادة للكتابة ، واشخاصاً يرسم طبائعهم او يأخذ قسما من طبائعهم لينفخ فيها ابطالا لمسرحياته الجديدة ، او دلالات على حقائق متعددة ويلاحظ انه على وجهه تبدو ذاكرته كأميز ميزة في هذا الوجه ، علامات واضحة على وجهه كسرعة حركة العينين ، وانبساط في بعض قسمات ما بين الانف ، والجهامة التي تدل على الدهشة والاستغراب ، كل هذه العلامات تقدم لنا ذاكرة يوسف في شكلها الظاهر ، وثمة جانب وجداني في ذاكرته ، انه يحيا في الاشياء التي يتذكرها ، يتفاعل فيها ، يلتصق بها ، وهذا الجانب الوجداني يفيده في عمليات الحفظ ، ويفيده في عمليات الاستظهار ولا سيما وهو يؤدي دورا في بطولة مسرحية على مسرح محاط بفئات اغلبها ينتمي الى الثقافة العامة ، ومن اعراف النقد المسرحي ، ان الاستظهار او الحافظة القوية والتجويد بالتذكر ، هو من معالم الممثل المجتهد ، وربما كانت بعض طبائع ذاكرته وراثية ، ورث التذكر

واصنافه من إبيه ، اذ يروى ما يروي عن ابيه ، انه كان عاشقا لاحداث الماضي ، يرويها بالسنين والاشهر وحتى الساعات ، وكذلك كان اخوه الكبير ، عبدالغفور (الذي بلغ الثمانين ..) وما زال يعطي يوسف الاحداث بالارقام والالوان والتشابهات حينما لا تقوى ذاكرة يوسف على القيام بواجباتها الاستظهارية التامة .. وقد اكتشفت في يوسف ، ان ذاكرته اقوى من (حافظته) ومرد ذلك الى عاملين : الاول ، هو ان جل ما يقرأ يقع في باب الفنون ، فلا يوسع من قراءاته للعلوم والفلسفات وغير ذلك ، وهذا ما يجعل (الحفظ) مقتصرا على خلايا عصبية معينة ، اذ المعروف ان التوسع في قراءة المعارف (ولا سيما في العلوم النفسية والفكر الفلسفي وسير الابطال ..) ينمي ، بدوره زيادة نشاط الحركة العصبية في الدماغ ويلغي حالة أو يقلل من وطأة مرض النسيان في الذهن ، والثاني الضعف الذي اصاب عينه حتى اقعده عن قراءة ما هو واجب في حفظ بعض ادواره المسرحية ، يقول (لكن الذي يساعدني اكثر ، انني في التلفزيون اقرأ دوري جيدا .. وفي يوم التصوير اقرأ ما يتعلق بحواري في المشاهد التي سنصورها مرة واحدة ثم مع الممثل او الممثلة .. وقبل بدء التصوير اكون قد حفظت الحوار ليكون جزءا من (الشخصية) وليس حوارا مأخوذا من مؤلف كتبه لي ...) .. وربما كان يوسف يعرف ، انه كلما حفظ حفظا كثيرا ، كان اكثر

قدرة على (التلقائية) واكثر اقتحاما للغامض والمفاجيء والمجهول في خشبة المسرح ، وانه كلما تكاسل في هذا الحفظ ، ضعفت فيه قدرة التشخيص ، واضحت ادواره نصوصا جامدة بل اشباحا من الاشباح »!

وكل هذه الصفات العقلية والنفسية ليوسف ، تقوم على هيئة جسمانية تغيرت على وفق سنوات عمره ، وجسمه اليوم يتوازن على طول (١٦٥) سم وعلى وزن (٧٠) كغم ، وفي مدة معينة تجاوز وزنه اكثر من ثمانين كغم ، وبفعل حركة المسرح ذاب شحمه ولحمه ، ورجوعا الى الوراء كنا نرى يوسف في شبابه بارز العضلات متناسق الجسد حتى صارت رشاقته المثل في كرخ بغداد ، وصارت حركته سريعة ناعمة ، مضرب المثل في مسارح الكليات ، واظنه كان يراقب حركة جسمه ، في الهبوط او في الصعود ، في الهبوط ينزل وزنه اذا نزل وزنه دأب على الحركة ، والمسرح حالة حركة ، وفي الصعود يثقل جسمه ، يسكن في زاوية واحدة من المسرح ، أو يقيده الى مكان واحد ، واظنه يحسب حسابا لجمالية حركته الجسمانية فلولا حسابه هذا لما مشي كثيرا ، كل صباح ولا اطل من نافذة شقته الجميلة ، كل فجر ، يتنفس يقظه النهر ، هو اليوم ينط وينتقل برشاقة ايضا على المسرح يغبطه عليها اصدقاؤه جيل المسرح ..

كيف لا يكون رشيقا ، وفي ذهنه اكثر من منهج للحركة: ينتظر ان

يؤدي دورا في مسرحية الفها ، اسمها : (نجمة) .. ينتظر ان يساهم في تقديم مسرحية (الضوه) .. وينتظر ان يشارك بفيلم ينتج في تونس من قبل شركة هولندية ـ امريكية ، ويخرجه : رضا الباهي ، ويوسف يمثل فيه (دورا رئيساً) مع روبرت ميتشام وجاكلين بيسيه ويوب هويكنس ، وعنوان الفيلم (السنونو لا يموت في افريقيا) ..!

واكثر من هذا ، انه ينتظر ان يطبع كتبه البالغة (١٤) كتابا .. وان يظل عنوان محبة مسرح الحياة ..!

○ ندم يلاحقني ..

عزيزي المطبعي ..

..... طلبت مني ان اكتب عن ندمي ، فهاك صورا منه :

● فقد طلب مني الفنان الكبير جواد سليم ان ينحت لي تمثالا حين كنا نقدم مسرحية (مسمار جحا) التي قام بمهمة الماكياج فيها ، فرحت لهذا الطلب ، لكنني **تجاهلته** حتى فقدت فرصة ثمينة لا تعوض !

● ندمت لأنني درست اللغة الالمانية عام ١٩٥٧ لكنني تركت ذلك بعد عودتي للعراق عام ١٩٥٨ فخسرت بذلك منفذا مهما من منافذ الاطلاع على ثقافة عريقة من خلال **هذه** اللغة !

● ندمت ندما كبيرا لانني ساهمت بانتاج فيلم (وداعا **يالبنان) بعد ان اقنعني (..........) بأساليب شيطانية** خدعت بها ، فخسرت كل ما املك من مال وعقار ، خسرت خسارة معنوية بسبب هزال الاخراج والتحايل الذي قام به المخرج ليكون هو الكاسب الوحيد فيه ..

(من رسائل العاني الى المطبعي)

○ مسرح الحياة ..!

نزلنا من مسرح القاعة وصعدنا الى مسرح الحياة ، حيث قلت له :

س ـ كيف تواجه اخطاءك..؟

ج ـ اواجهها بفرح ، لانني اكتشفتها ..

س ـ لماذا يرتكب الانسان الخطأ ..؟

ج ـ جل من لا يخطيء !

س ـ متى يصل الخطأ الى خطيئة ..؟

ج ـ حين يؤذي الاخرين ..

س ـ هل يختلف الناس حول الشر ..؟

ج ـ كما يختلفون حول الخير ..

س ـ وهل يختلفون حول الخير؟

ج ـ كما يختلفون حول الشر ..

س ـ من هو الشرير في كل زمان ..؟

ج ـ من يهدر انسانية الانسان ..

س ـ ما الفرق بين المجرم والشرير ..؟

ج ـ حين يتحول الشرير الى ممارس لشره يكون مجرما ..

س ـ ان شاعرا شرير ..؟

ج ـ اين الشاعر اذاً !

س ـ ما الفرق بين الشرير والزنديق ..؟

ج ـ كالفرق بين الوقح والصفيق !!

س ـ هل اهتز ايمانك يوما ..؟

ج ـ ابدا !

س ـ يقال ان وجهك يبدو من خلال التمثيل وجه الشرير ..؟

ج ـ حتى ان بدا هكذا وانا اشك ، فان اعماقي نقية وزاهية .

س ـ هل ضرورة ان يكون الكاتب المسرحي سياسيا ..؟

ج ـ كيف يكون الانسان مثقفا دون ان يعرف ماهي السياسة ويمارسها في سبيل الخير !

س ـ يظهر ان لك تعريفا خاصا للسياسة ..؟

ج ـ انا افهم السياسة وسيلة من وسائل تطوير المجتمعات وتقدمها .

س ـ إذن قل لي ما الحرية..؟

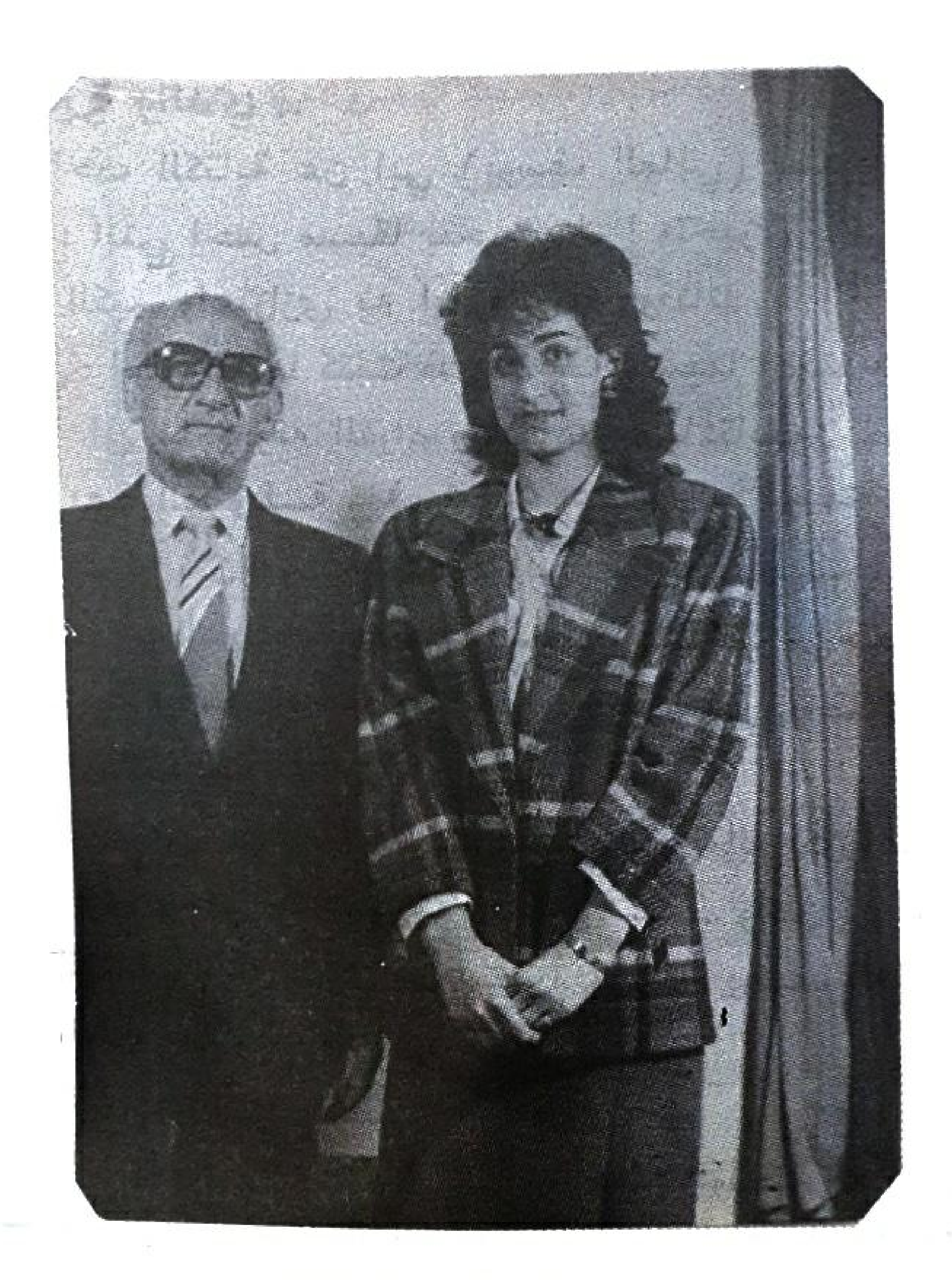
ج ـ ان أعيش وجودي الواعي بلا قيود !!

○ سيرة والدي ..

لا احب الكتابة عن ابي (يوسف العاني) لسببين ..
الاول : انني احس مسبقا بتحيزي له ! وتحيزي يأتي من حبي الكبير واعتزازي به ابا وانسانا وفنانا .
الثاني : انني اذا ما كتبت فلن اضيف حسبما اعتقد شيئا جديدا الى ما يعرفه القراء والمشاهدون والمتابعون لمسيرة **والـــدي الطـويلـــة ، فسنـوات عمـــري ، ليست هي** عمر مسيرته ، ان ابي (يوسف العاني) فنان وقف على المسرح وكتب له ، وساهم في بناء مسرحنا العراقي منذ اكثر من **خمسين** عاما ، وهذه السنوات الطويلة قد سبقتني عمرا واطلاعا .. فماذا سأضيف ..؟

انني وحين يصدر «هذا الكتاب» ، ساقرأ مالم اكن اعرفه عن والدي وسأقرأ ما سيكتبه الاخرون عنه .. واظن ان ذاك ما يقتضيني فعله وشكرا لمن سيقرأ عن ابي يوسف العاني وشكرا لمن سيكتب عنه ايضا !

[وسن يوسف العاني]



وسن مع والدها يوسف العاني

الفصل الثاني

في مسرحه :
موهوب
في النزعة الشعبية ..!



كاد التمثيل يكون قدره ، وكاد قدره يتوجه الى التمثيل ، لطبيعة في نفسه ، ولطبيعة في ميوله النفسية ، ولا مزجته التي كان على (الفعل المسرحي) او الدراما المسرحية ان تستوعبها على وفق تماثل الاشياء في الحياة ، نشأ من شيء اسمه حركة ، ومن هذه الحركة استطاع ان يتصرف في المسرح ، ان يصوغ ادراكه وافعاله ، عقله ومواهبه ، في تطور قوانينه المسرحية ، بمعنى : ان يوسف القى وجوده في المسرح على مراحل :

١ ـ المراقبة والتشبيه :

وكان تمثيله في هذه المرحلة نوعا من (اللعب) ، اذ لم يخطر بباله ان يكون ممثلا في المستقبل ، فهو ما زال طفلا ، في العاشرة من عمره ، ومداركه ما زالت طرية لم تتمكن من ان تتنبأ او تحدس حدسا ، الا ان القريبين اليه من اقربائه كانوا (يشخصون) فيه موهبة الحركة الرشيقة المتنوعة التي تفجر الضحك والاستغراب وما ينتج عنهما من ظرائف الحال ، كان يلعب داخل البيت ، في (الطرف) في باحة الخان .. يلعب مع لداته ، مثلما يلعبون لعبة (الختيية) او (طفيرك ياگمر) .

في الصف الاول الابتدائي اثار انتباه معلمه : يا يوسف خذ مقعدا واحدا ولا تحاول ان تتنقل من مكان الى آخر ، كان لا يستقر على (رحلة) واحدة ، من اليمين الى اليسار ومن

الشمال الى الجنوب ، لم يكن (قلقا) فهو لا يعرف القلق في هذه السن ، وانما كان كثير التنقل ، ربما كان يعشق المكان الجديد فينتقل اليه بدافع حركة المكان ، المسرح مكان ..

يدق الجرس ، ويوسف اولهم في الساحة ، ويلاعب شفتيه ، يخرج صفيراً شديدا ويختبىء ويملأ ضجيجا ، لا يقصد في هذا (الصفير) ان يؤذي به احدا ، بل كان مولعا بان لا يقف في الساحة دون حركة ، اما صفير أو رمي الكتب الى الاعلى او تحدي زميله بالملاكمة او الركض للتسابق في الساحة الملاصقة للصفوف ، واذا دق الجرس الاخير واعلن المدير انتهاء الدوام فان يوسف لا يخرج الى بيته وحيدا ، وانما يخرج التلامذة زرافات فيؤنسهم في الطريق الى بيوتهم ، اما بحركاته البهلوانية او يبادرهم بالهوسة الجماعية او النشيد الجماعي ..!

بطريقته الخاصة قرأ درسا من دروس (القراءة) في الصف الرابع على شكل خطابة ، نهره المعلم : لا تخطب ، بل اقرأ هادئا .. ومرة اخرى قرأ خطابة ، ادرك المعلم طريقة يوسف وتركه وشأنه ، لكنه لم يتركه عبثا ، فأحتفظ به في ذاكرته ، يقوم هذا المعلم الذي يدرسهم العربية بنشاط (لا صفي) ويرسل في طلب يوسف : (لقد اخترناك ان تمثل في تمثيلية) .. نعم استاذ ، فأنا امثل هذا الدور الذي مثله يوسف الطحان في درس (القراءة) ومثله امام جمهور الطلبة

والمعلمين على الارض ، ونجح في التمثيل ، لان المدير قال لمعلم العربية علي القزويني : (ان يوسف اسماعيل العاني القى النص جيدا وحول النص الى اشارات واصوات منطبقة على النص) لكنهما لم يقولا ليوسف ، ثابر في التمثيل ..!

● ● ●

كانت السينما مهبط شوقه الى التمثيل ، الممثل هنا كبير وعريض على الشاشة وبامكانه ان يتفحصه بوضوح ، ان يلبس جلده بسهولة ، ينفذ اليه عبر مساماته المجسدة ، ففي كل اسبوع كان يرى فلمين مع ابن خاله (رؤوف) ومداركه ما زالت مدارك الصف السادس الابتدائي ، يدخل فلما في سينما رويال فيرى جورج جابر ن وتنطبع في مخيلته صورة الممثل الابيض الطويل ذي الشعر الاشقر ، ويدخل فلما عربيا (انشودة الفؤاد) ويرى الممثل العربي قريبا الى جلده ، فيتشبه به ، يقفز ، يتعارك ، يحب ، يعشق ، بل يؤدي مع نفسه الدور نفسه الذي يؤديه الممثل العربي على الشاشة ، وكان مثله الاعلى في التمثيل : يوسف وهبي او بشارة واكيم ، في حين يسقط هذا المثل من عينيه بعد زمان يوم ادرك يوسف العاني زيف ميلودرامية يوسف وهبي وسطحية بشارة واكيم ، حين اقترب عن وعي الى مسرح نجيب الريحاني .

وفعلت فيه السينما فعل السحر حينما اصبح ذهابه اليها

منهجاً اسبوعياً ، كان لا يذهب الى اي فلم الا وفي جيبه دفتر صغير وقلم ، ينقل من الافلام الحوار بين الممثلين او المشاهد التي تأسره ، واثناء عودته الى بيته يعيد الحوار على ذهنه فيتقنه ، ويتخيل المشاهد فيخزنها في اعماقه ، وفي المدرسة او في ساحة المحلة يقدم فلما الى التلاميذ هو مزيج من افلام شاهدها واعجب بها ، امثال ، فلم (ليلى بنت الفقراء) او (ليلى بنت الاغنياء) او (ساعة التنفيذ) وكان مغرما بافلام العصابات او بسلسلة افلام طرزان حتى تدرب على حركات ابطالها ، واتقن تقليد اصوات حناجرهم ، وتجمع لديه من هذه اصناف من التجارب ، وما ان تهل عليه العطل الصيفية حتى يدعو رفاقه الى خان عمه التاجر الواسع كبير العنابر ، وبين الصوف وحلان التمر في هذا الخان يجلس الفتى يوسف يخطط لرفاقه منهج فلم في حياة عصابة ، ويوزع عليهم الادوار بحسب قابليات اجسامهم والوان وجوههم ، يعطي هذا دور رئيس العصابة ويعطي ذاك دور المنقذ ، اما يوسف فيعطي لنفسه دور (الولد) .. الذ يتحدى ويكافح فيقع بين افراد العصابة فجأة ويأتي آخر لينقذه من مخالب العصابة ، هكذا كان خان عمه سينما شعبية جمهورها : عتالون واصحاب الزوارق والعاطلون .. والممثلون فيها : فتيان حالمون يوزعون صباباتهم في ضمير الغيب ، بحب واصرار وقدر مقدور ..!

* * *



في الوسط.. مع رفاقه في سفرة الى بساتين الفلوجة

وربما كان في هوسه ، لاتقان ادوار الممثلين المشهورين ، في اليقظة والحلم ، وربما كان **تقمصه** ابطال الشاشة في كل اندفاعاتهم ، قد اورثه (الفضول) في مراقبة الاخرين ، وما زال هذا (الفضول) فيه ، وهو ليس فضول الفضوليين ، وانما هو الحاح منه في مراقبة المواقف من خلال هياكل الادميين ، او انه يشخص الهياكل للوصول الى حالاتها الانسانية ، فكان يرقب السمات البارزة في حركة او قول او اشارة اقاربه واصدقاء اسرته الذين يزورون بيتهم ، ولا سيما وهو يخص بالمراقبة : النسوة المعروفات بقدراتهن على الحديث او (السوالف) المشوقة ، او في تشريح وتثليب الاخريات والاخرين ، وكان ينقل هذا الفضول الى المدرسة ، حيث المعلمون (مادته) في هذه المراقبة و (التقليد) ، فحين يغيب معلم ، يقف يوسف يقلد المعلمين ، وكل صف صار مسرحا مفتوحا ، وهو يوزع الادوار على زملائه من الطلبة الآخرين او من ابناء صفه ، وبينهم ادى ادوارا كوميدية بارعة ، يعقوب الامين ونبيل الدجيلي ومهدي رشيد ويحيى فارس واخرون ، ثم اتسع مكان هذا (التقليد) من الصف الى مسرح حفلات السمر المدرسية التي كانت تقام في مناسبات عدة ، حتى أضحت مادة (التقليد) التي يمارسها يوسف احدى فقرات رئيسة في برامج الحفلات المدرسية ، وكان المعلمون يعجبون به مقلدا ، هازئا ، مثيرا للشجون ، مفجراً حالات واقعية ما

كانوا يعرفونها في زملائهم الاخرين ، ويعضهم ما كان يرتضي كوميديا يوسف لانهم وجدوا فيها تعريضا بسلوك معلمين طيبين ..!

* * *

مازال صبيا وخالته تقص عليه حكايات البيوت في محلة (سوق حمادة) فيحزن حزنا شعبيا ، وخالته ما ان يجلس اليها حتى تذهب به الى اقصوصة الارملة او العجوز التي باتت بلا طعام ، ويسألها (لماذا ..) فتقول له .. (نصيبها) فيكاد تقتله عبرات العجائز الضائعات في دروب النصيب الغامض ، وكانت **أخته** تنشد عليه (شعرا عاميا) وتولول بالعامية كالنائحات او تقرئه اغنية شعبية لا بد انها من اغاني الفجيعة الشعبية ، فيترنم بها في طريقه الى (خان) عمه ، وفي هذا الطريق قد يتوقف ليسمع خطيبا يرتجل دعاء دينيا ، او يسمع منشدا للقرآن جاء صوته من مجلس عزاء كبير منبعثا على نقرات دف الدراويش ، هذه الدنيا حزن ، يحرسها قدر مجهول هكذا قال يوسف لاخيه الكبير عبدالغفور ، لا يايوسف .. نحن لسنا مسؤولين عن هذا الحزن ، انه قدر ان يصبح اليتامى يتامى والاغنياء اغنياء ، هل نحن اغنياء ياعبدالغفور ، لا .. نحن من طبقة متوسطة ، لكن هل ترضى ان يصبح الناس او بعض الناس فقراء ، لا .. ولكن ليس في يدنا حيلة يا يوسف .. حيلة ، وظل يتفكر في هذه

اللفظة ، ومن لحظتها لازمه ومن لحظتها لازمه الاقتراب من اولئك الذين لا تحررهم (الحيلة) ومن لحظتها انتمى الى البسطاء ، لحزن في قلبه ، لادراك من عقله ، بان كل اولئك الذين يحيطونه في المدرسة او في الخان او في شوارع بغداد هم من الفقراء ..!

٢ ـ الميلاد وبداية النص

لم تملأ قلبه المحاكاة، وهذا التشبيه ما عاد يلبي تطلعاته ، فأخذ يقرأ في فن التمثيل ، يقرأ الشعر والقصة ويكتب فيهما ، يقرأ النصوص المسرحية القادمة من مصر لشوقي وعزيز اباظة وتيمور وباكثير، وتنشأ فيه خبرة المجادلة ، والمجادلة شجعته على كتابة فصول وفصول من مسرح الواقع ، وينقلها بعين فوتوغرافية على الورق ، وهناك في احد بيوت اصدقائه (علاء النواب) يجري الاختبار ، فتمثل الفصول وتتحول الفصول الى مشاهد ، وكانوا جماعة من اهل الكرخ ، غزال ابراهيم وحسن عبدالوهاب ويوسف يقرأ لهم ويقرأون له حتى تكتمل الفصول في مسرحية تعرض على مشاهدين في غرفة كبيرة من بيت النواب .. في بداية الاربعينات !

* * *

في بيت (النواب) سأله زميله :

● كيف نعرض نصوصنا على حقي الشبلي ..؟

ـ محال .. محال ، لا احد يرى هذا العملاق ؟

فحقي الشبلي في نظرهم كان شيخا كبيرا من شيوخ المسرح ، والاقتراب من عتبته يعني تحقيق حلم كبير من احلام جماعة يوسف او يوسف نفسه ، الذي طالما تغنى باسمه ، ورآه في حلم اليقظة اميرا واميرا ينادي على مسارح العرب ، فترددوا وتوجسوا ..!

وفجأة يدخل حقي الشبلي الى المدرسة (الكرخ المتوسطة) ويهرع اليه يوسف وجماعته الطلاب في هذه المدرسة .. من جاء به ؟ كيف نراه ، متى نصل اليه ، قال لهم المدير : جاء الاستاذ حقي الشبلي لينتخب طلابا لهم هواية المسرح ، حتى يجعل منهم اعضاء في لجنة التمثيل والخطابة ، فعليكم ان تسجلوا اسماءكم للاختبار ..

نودي على يوسف ، وبذهول وقف امام رائد المسرح حقي الشبلي :

● هل تحب التمثيل ..؟

ـ انا ممثل ، مثلت في تمثيلية يوسف الطحان في مدرسة دار السلام الابتدائية ، وشاهدت مسرحية في مدرسة الكرخ الابتدائية ..

● كيف رأيت يوسف الطحان ..؟

ـ مثل زوج اختي هكذا تخيلته في دوري ..

● وماذا رأيت في مسرحية الكرخ الابتدائية ..؟

ـ اسباب الخيانة الزوجية ..

● وماذا شاهدت غير ذلك ..؟

ـ الممثلة فاطمة رشدي في مصرع كليوباتره لاحمد شوقي على مسرح سينما الملك غازي ..

وقال له حقي الشبلي بلطف :

● هل تحفظ شيئا من المشاهد المسرحية ..؟

ـ الكثير .. الكثير ..

● قدم لنا مشهدا من المشاهد ..؟

وبصوت فيه نبرة الممثل المحترف ، قرأ يوسف :

حسناء اي فتى رأت تصد

قتلى الهوى فيها بلا عدد

بصرت به رث الثياب بلا

اهل بلا مأوى بلا بلد

ولم يقتنع حقي الشبلي وكرر ؛

● قلت لك قدم مشهدا من المشاهد التمثيلية ..

ـ ها انذا يااستاذ ..

وتكور يوسف بوقفة تمثيلية وشرع يقرأ :

سكران وهي تمص من دمه

وتريه قلب الام للولد

سكران وهي تزقه قبلا

ويزقها واذا تزد يزد

ومرة اخرى يثور الشبلي في وجه يوسف :

● لماذا لم تلتزم بقولي ..؟

ـ وأنا التزمت وقدمت مشهدي المسرحي !

● ما قدمته لا يصلح ..!

ـ وهل افضل من قصيدة (المسلول) لبشارة الخوري تصلح ان تكون نصا تمثيليا يا استاذ حقي : ها أنذا قدمت عدتي ..!!

تأفف حقي الشبلي ، قال بمرارة :

ـ **(يا ابني إبحث لك عن شغلة اخرى غير التمثيل) ..!**

انت راسب ، لم يحالفك النجاح ..!

* * *

لكن الاقدار هي الاقدار ، فيوم ابتلى يوسف بالمسرح قدرا من اقداره ، بوعي او بدون وعي ، صار لاتثنيه عن هذا المسرح عقبات وعقبات حتى وان جاءت هذه العقبات من رجل المسرح الاول : حقي الشبلي ، قال : لكنني لا ابحث عن (شغلة) اخرى غير المسرح ، هل يريدني او هل يريد حقي الشبلي ان اكون شيئا آخر ، غير الممثل يوسف العاني ، لا ، لا ، فأنا ممثل ..!

بدأ يكرر على وعيه ، هذا الذي سميته (لعبا) لم اكن ادري في البداية انه التمثيل ، ولكن يايوسف هل اللعب هو لعب

حقا ، حين يتحول الانسان اللاعب مثلك الى ممثل ، نعم .. انت لعبت بالقياس الى حركة رأسك وهي حركة ممثلين ، وبالقياس الى حركة اعماقك كلها ، وهي حركة اعماق ممثلين موهوبين (فقلدت) الناس التقليديين والناس المعروفين ثم تشبهت بممثلين كانوا نجوما يوسف وهبي وبشارة واكيم ونجيب الريحاني (بشخوص مسرحه الكبير) ، بل تشبهت حتى بممثلات معروفات ، فاطمة رشدي وراقية ابراهيم .. اتظن انت رسبت بكلمة من الشبلي ، لا .. لا .. المهم : ان تخترق الزمن وتعلن الظفر على شيء اسمه المستحيل

وقرأ (الرسالة) و(الثقافة) المصريتين ، قرأ مسرحيات عربية ، اجنبية ، قرأ كتاباً كبيرا بفن الدراما ، وربط الليل بالنهار من اجل قلقه ، حتى اذا دخل المرحلة الثانوية ، كان يوسف قد اكتمل لسانه المسرحي ، وصار يتحدى بعلانية ، انه ممثل وكاتب مسرحي .. وفي الثانوية المركزية تعرف على عطا صبري مدرس الرسم وانتمى الى جمعيته الفنية ، وانتمى ايضا الى (جمعية العلوم) التي كان لها نشاط ملحوظ في رعاية المواهب الثقافية ولرشاقته صار عضوا في فريق الملاكمة ، وامتد في هذه المنافذ : شابا شعبيا جميلا ممثلا وملاكما ، لبقا متحدثا يتصدر الحفلات ..! ·

* * *

وفي لوحة الاعلانات قرأ يوسف : أن حفلة سمر ستقيمها جمعية العلوم في الثانوية المركزية ، وابرز فقرات هذه الحفلة ؟ (الغناء والتمثيل) وطلبت من الطلبة المشاركة في ذلك ، وتقدم يوسف بنص مسرحي ، عنوانه : (القمرچية) هو كاتبه وهو الذي يخرجه مع زملائه الطلبة .. فقبل النص وفكرة الاخراج ، وكان امله المرتقب ..

وصعد المسرح في يوم ٢٤ / ٢ / ١٩٤٤ (.. وكان هذا الحدث في نفسي ذا مكانة لم تغب عن مخيلتي طيلة اعوام .. هو الموعد الذي حقق لي ذلك الحلم الذي عاش معي سنوات ..) .. ومسرحيته (القمرچية) تصور حادثة واقعية عن (لعب القمار) بين عدد من العاطلين في حي شعبي هو (سوق حمادة) بجانب الكرخ ، واستطاع يوسف ببراعته الشعبية ان يشحن كل شخصية من شخصيات المسرحية بالمفارقات وصور الهزل الكاريكاتورية ، مما اثار ضحك المشاهدين على اولئك الذين يمارسون (القمار) الخطيئة ، وكلهم هؤلاء المشاهدون كانوا يستحسنون في يوسف الدقة المتناهية في التقاط انفاس المقامرين وهمومهم في كسب النقود الحرام ، ويستحسنون فيه حركة الممثل القدير ولفتة المجرب الخبير .. لكن (شخصيته المسرحية) لم تكتمل بعد في هذه المسرحية ، فهي مصنوعة من جلود ممثلين اخرين : (تارة انا بشارة واكيم واخرى نجيب الريحاني واحيانا يوسف

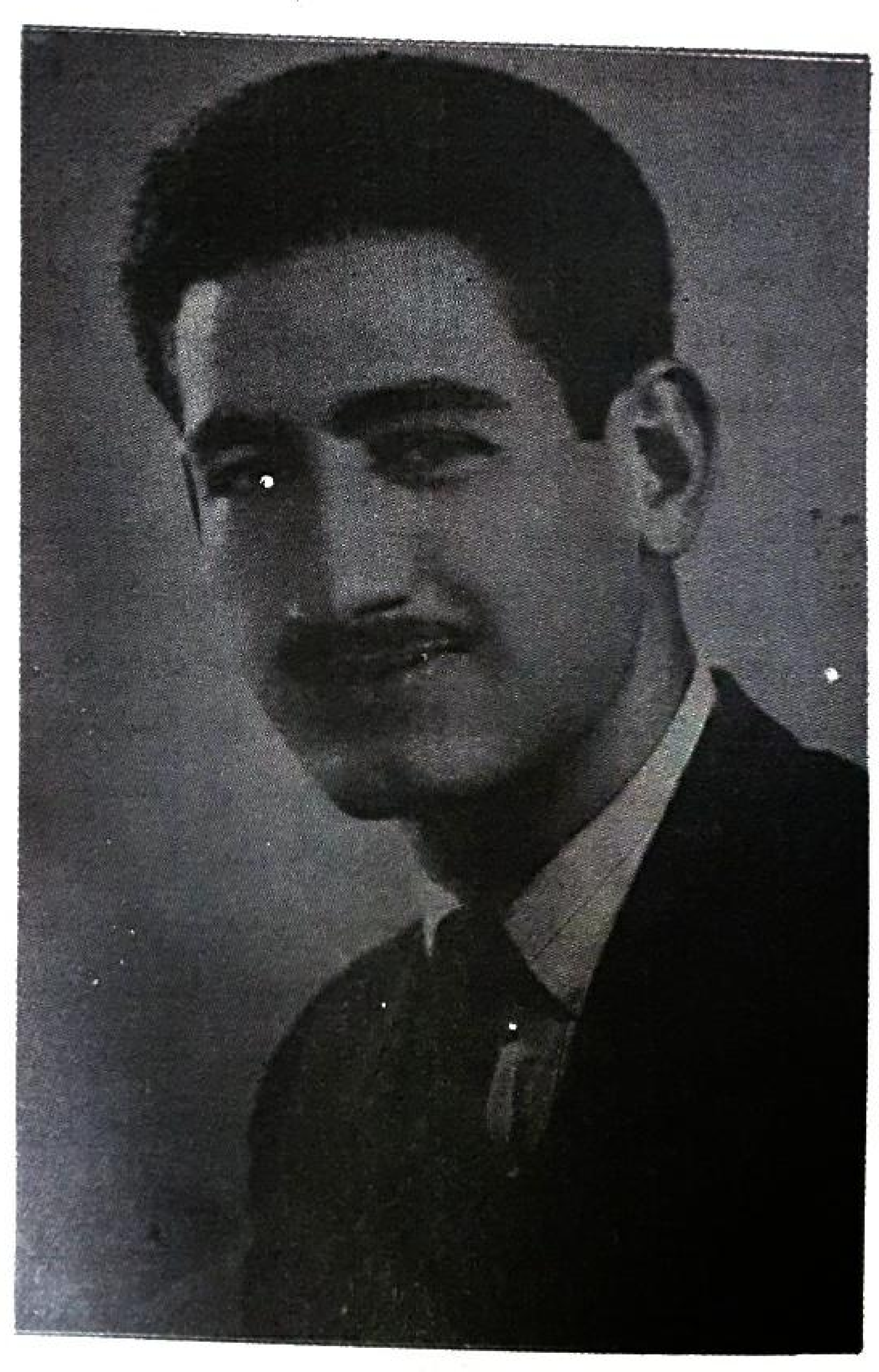
وهبي ..) والمهم ، انه كتب النص فانتصر فيه كاتبا ، وواجه جمهورا كبيرا لا يعرفونه فأثنوا على روعة ادائه ، واشبع في اعماقه غريزة التمثيل ..!

٣ ـ جبر الخواطر

ويدخل كلية الحقوق .. (وكان قد التحق بالجامعة الامريكية ببيروت لدراسة الطب ففشل في التجربة ..) واراد ان يتعرف على الحياة بوسيلة القانون ، ويحول القانون الى حالة نقدية كوميدية ، هي كوميدية تشارلي شابلن التي ترقى بالنقد والانتقاد الى مرتبة القيم الاجتماعية ، او هي كوميدية نجيب الريحاني ، ولا سيما في مسرحيات (مكتب المحامي) ، التي تعري واقع بعض المحامين ، فكان ان أسس : (جمعية جبر الخواطر) جرب فيها فنون النقد الشعبي والنقد الاجتماعي والنقد السياسي ، فكتب لها واعد واخرج ومثل ما استطاع الى ذلك عاطفة وفكرا وصلابة ..

* * *

كان في كلية الحقوق فارسا شابا ، معقد آمال الشبيبة التي رأت فيه مالم تر في غيره ، قوة منطقه ، وجاذبية شخصيته ، وفرحه الدائم الى الحياة والمستقبل ، فتعلق به الكثيرون ولا سيما الكثيرات من زميلاته اللاتي يدرسن القانون في هذه الكلية ، حتى شغلن قلبه حبا بهن ، فأحب الجميلات



في كلية الحقوق

النبيلات واكرمهن بالحب النبيل ، لكن لاحظ ليوسف في هذا الحب النبيل ، فشل اختياره لانه على عجل ، والغريب ، ان كل زميلاته في الكلية قد تزوجن من زملائهن الا يوسف ، على رغم من صداقاته للكثيرات العزيزات عليه حتى هذا اليوم .. انه اختار واحدة وعاش من اجلها حبا مريرا كاد يدمي قلبه الاسيان ، لكن منهج يوسف في هذه الحياة اضعف هذه الفتاة التي احبها ، حيث وقفت في منتصف الدرب بلا قرار .. وهو منهجه الذي ابعده عن ان يبني له بيتا ويخلق له عائلة ، كما الناس عاشوا وبنوا لهم بيوتا عامرة بأمانيهم الاولى ، يوم كان اكثر زملائه في كلية الحقوق يحلمون بمستقبل اخضر لا هموم فيه للسياسة ، بل لا هموم فيه لوطن ، هكذا شاءت الحياة ان يبقى يوسف في كلية الحقوق او في ما بعد هذه الكلية ، بلا حب ، بلا بيت العائلة ، لكن لا قانون ثابت في هذه الحياة ، فقد لمعت في حياته المرأة التي عرفته (حق المعرفة) وبذلت في سبيل منهجه وطموحاته الكثير الكثير ، فكانت قريبة منه ، وفية له ، مشاركة أياه كل متاعبه ومعاناته وشقائه ، وهي (شريكة عمره) الآن في الحال وفي كل الاحوال ..!

* * *

في جمعية (جبر الخواطر) بدأ العاني مرحلة (الاقتراب) من نفسه ممثلا ، ومن الشخصيات التي يمثلها حقيقة ، بدأ هكذا ، حتى يمكنه هذا الاقتراب التدريجي من نسيانه

الشخصيات التمثيلية التي إحبها وعشقها في ماضي زمانه ، فحاول ان (يتابع) الشخصية التي يمثلها ، كيف هي .. شكلها .. حركتها ، طباعها ، فمثل ما كان (يقلد) بعض الشخصيات التي يراقبها في الميدان ، جاء الآن ، يعيد تمثيل الشخصية نفسها التي يمثلها ، لكن باختلاف واضح : هو اضافته ، ما يضيف على هذه الشخصية التي يمثلها ، من تصوره الخاص وحدسه الخاص ، النابع من تجاربه ، فكان لهذه الشخصية ، بنية جديدة ، فهم جديد ، اثارة جديدة على المشاهد .. واننا لنلحظ في هذه المسرحيات ذات الفصل الواحد التي كتبها وقدمها العاني في (حفلات السمر) بكلية الحقوق في اواخر الاربعينات . عبر جمعية (جبر الخواطر) تلك (الطبيعية) التي ظهر فيها الممثل العاني ، في ان يكون (طبيعيا) بلا (تكليف) وفي ان يكون مختارا لنفسه ، ولسمات وجهه ، ولجوهره كحركة مسرحية ، وفي ان يتلخص من تأثيرات الآخرين الذين استعار وجوههم وحملهم في جسده المسرحي اينما مثل وحيثما ذهب به الدور المسرحي .. وازداد قرباً من نفسه في التمثيل ومن (طبيعته) عندما اطلع على (نتف) من نظرية (ستانسلافسكي) التي وصلت الى بغداد انذاك ، وهي مترجمة ترجمة ادبية اكثر مما هي ترجمة فنية ، بل ازداد اكثر اقترابا من هذه (الطبيعة) في التمثيل حين انتمى الى فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة بعد تخرجه في كلية

الحقوق ـ ١٩٥٠ ، طالباً يتلقى فنون التمثيل على رائد المسرح حقي الشبلي ، وعلى تجارب وابداع ابراهيم جلال وجاسم العبودي ،،!

* * *

كانوا في (جبر الخواطر) مجموعة تلتقي اهدافها في ان الفن للمجتمع ، يثورون على البالي المتفسخ ، ويتحدون المال ومصادر المال ، وبينهم كان (شهاب القصب) الذي ترك بعد وفاته ، في اعماق يوسف حزنا لا ينتهي مداه ، كان القصب واحدا من فئة فرشت البساط المسرحي في عيني يوسف وكان يقول له : (المهم ان نجرب ونكتشف انفسنا في التجريب) ، وجربوا ان يعدوا مسرحية (مجنون ليلى) للشاعر احمد شوقي ، وكان التجريب في ان يدخل يوسف العامية في هذه المسرحية ، ليغير في خطها ، ويمزج في شخصياتها التاريخية شخصيات من الواقع ، واول هذه الشخصيات كان يوسف نفسه .. الذي حاول ان يقدم المسرحية او ينقلها من طابعها التاريخي الى الطابع الشعبي ، فنجح في (حرفة التجريب) .. وهو التجريب نفسه الذي دخل في مسرحية (مجنون يتحدى القدر) التي قدمها يوسف باشكال رمزية ، قيل انها من مسرح (اللا معقول) في مسرح بداية الخمسينات .. وغيرها كثير ، والكثير فيها هذه الدعوة الى تمجيد الانسان وحب الارض وزرع الامل في ملايين النفوس ..!



أعضاء جمعية (جبر الخواطر) سنة ١٩٤٨ ... يبدو يوسف العاني آخر الصف يساراً ...!

يوسف المحامي

لكن الاقدار شاءت ان يترك يوسف جمعية جبر الخواطر، ليطبق القانون الذي درسه على حياة مملوءة بالمفارقات والمتناقضات، فمنذ ٨ / ٧ / ١٩٥٠ سجل نفسه عضوا في نقابة المحامين، وكان قد تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ وصار المسرحي الشاب محاميا شابا، رغم رغبة اهله الذين ارادوه تجارة وتاجرا من تُجارهم ..

كل صباح كان يذهب الى المحاكم، يجلس في غرفة المحامين الواسعة، وما هي الا ايام حتى بدأت النقابة تكلفه هو ورفاقه بمتابعة (اضرابات) العمال، وبمتابعة الدعاوى السياسية التي كانت اولى تجاربه في ميدان المحاماة، فرأى سجنا بعمر نوري السعيد، بل ظلما بعمر العهد الملكي، كان يرى الجرح ممهورا على عيون مئات الناس، عرائض، بيانات، شكاوى، احزان متراكمة، عيون قطط سمينة، عيون وحش مفترسة، لم يكتم صيحته: (فأينما ذهبت رأيتُ الظلم رجلا سفاحا ..) ويطوي الاضبارة ويسلمها الى محام كبير يتقن السياسة اكثر مما يتقن القانون ..!

في باب نقابة المحامين: عمي يوسف ..

● نعم .. ماذا تريد ..؟

- عندي دعوى !

كانت اول الدعاوى التي يحصل عليها: رجل اتهم بسرقة

(منكنه) ، كانت اخته تعمل (خادمة) في بيت يوسف ، اكد له هذا المتهم بأنه لم يسرق هذه المنكنه ، فأمن بقوله وشرع يتابع (قضيته) في المحكمة ، فطعن بشهادة الطفل الذي كان الشاهد الوحيد في هذه الدعوى ، فأفرج عن المتهم ، وقبض يوسف (عشرة دنانير) ثمنا لاتعابه ، وتمضي عدة شهور فيلتقي يوسف بالمتهم صدفة .. ثملا في شارع ابي نواس ، ويضحك في وجه يوسف ثم يشكره في تبرئة ساحته ، لكنه قال له بصراحة : (انه سرق المنكنة) فعلا ، فما كان من يوسف الا ان ابتعد عنه امتارا ، وعاد اليه راكضا يضرب رأسه فيسيل الدم من جوانبه ويتركه وقد شعر بذنب كبير اقعده في النهاية عن ممارسة مهنة المحاماة ، واكتشف انه خلق لغير هذه المهنة ..!

* * *

بيد ان هاجسه الى المسرح ظل يراوده كلما قرأ كتابا في المسرح او قرأ اعلانا بمولد مسرحية ، فعاد يزور جمعية جبر الخواطر في كلية الحقوق ويشاهد كل عمل من اعمالها ، وفي إحدى حفلات السمر لهذه الكلية القى يوسف قصيدة كوميدية تناول فيها حياته في كلية الحقوق وعمله في المحاماة ، متخذا من اساتذته موضوعات طريفة ظريفة اثارت فرح الطلبة والاساتذة ، قال :

قفا نبكي من ذكرى (حقوق) و(ندوة)

وحجية حسناء يطت مرارتي !

والندوة هي المقهى القريب من كلية الحقوق ، اما الحجية فهي بائعة السكائر التي كانت مقيمة في باب الكلية ..

ونبكي على درس يقضيه جابر

بشرح طويل فيه عشرون نكتة !

وان انسى لا انسى ابن ناصر شاكرا

ولا درسه (المتروس) املاك صرفة !

والاستاذ شاكر ناصر كان يدرسهم الأراضي : وهكذا تمضي قصيدته (المصنوعة) بحشد رموز الاثارة والضحك البريء الصاخب .. وكان أن حضر هذه الحفلة (خليل كنه) وزير معارف آنذاك ، فأعجب بشخصية يوسف ، الناقد الكوميدي اللبيب ، واوصى بان يعين يوسف استاذا معيدا بكلية التجارة ، مشرفا على النشاط الفني بعد ان اقترح ذلك عليه أستاذه الدكتور جابر جاد عبدالرحمن عميد الكلية..!

* * *

لكن اشرافه على فنون الطلبة لم يدم الا سنة ، فقد فصلته الوزارة وابعدته عن اي نشاط فني ، نعم انه في تلك السنة انضم الى المعارضة الوطنية ، وكتب لها مسرحية (رأس الشليلة) التي هزت اركان سلطة العملاء ، وزاد النار اشتعالا ، ومشى يوسف الى ذاته واثقا بحاضره وماضيه لانه منذ صباه كان يقول لشهاب القصب : دعنا من البكاء ، الشعب يطلب الخبز والشرارة ، وكن معي في مسرح الشرارة ، كن معي ياصديقي ..!



أول الجالسين : في احدى حفلات الكلية الطبية سنة ١٩٤٩

○ ايمان وعذوبة ..

وفضيلة يوسف انه طبيعي حتى في ملاقاته باسئلة محرجة :

س ـ قيل انك فردي في الفن وجماعي في السياسة ..؟

ج ـ انا جماعي في الفن والسياسة ..

س ـ هل كونت الاحداث السياسية فيك عقدة معينة ..؟

ج ـ حين يساء فهم السياسة تصبح لعنة على الناس اجمعين ..

س ـ اي سياسة اقرب اليك الان ..؟

ج ـ السياسة التي يعمل اصحابها من اجل سعادة الانسان ..

س ـ هل هي ضرورة ان يكون الفنان سياسيا ..؟

ج ـ السياسة جزء من الحياة ، فلا يتم فهم الحياة واستيعابها دون فهم السياسة ، والفن استيعاب الحياة بكل جوانبها ..

س ـ وقال حاقد بانك انتهازي ..؟

ج ـ اعوذ بالله من الحقد والحاقدين !!

س ـ وقال ناقد من خصومك أنك تحب الوجاهة ..؟

ج ـ انا احب البساطة الانيقة !

س ـ وناقد من جيلك قال أنك نصف مثقف ..؟

ج ـ لا اكثر من النصف بكثير ..!

س ـ وقيل أنك تبدأ الهجوم على انه دفاع ..؟

ج ـ حين احس بانني اهاجم دون وجه حق اهاجم قبل ان اهاجم !

س ـ وقيل أنك بحثت عن الزعامة ، ففشلت ..؟

ج ـ بحثت عن النجاح في كل المجالات التي خضتها راغبا ولم افشل ..

س ـ وقال فنان من الجيل الجديد ان يوسف انتهى ..؟

ج ـ مازلت اغذ السير الى امام ..

س ـ لو ولدت في اوربا ..؟

ج ـ لسمتني امي (جوزيف) !!

س ـ هل كفرت بنعمة ربك مرة ..؟

ج ـ شكرت نعمة ربي اكثر من مرة ..

س ـ لماذا سموك يوسف ..؟

ج ـ لانني كنت جميلا كيوسف الصديق !

■ منطق الحياة ..

لقد عشت سنوات عمري مع الناس القريبين مني والبعيدين عني ، من خلال اكتشاف الحياة عبرهم ، كل يحمل تجربة ، وكل له موقف ، وانا اتعلم واتعلم حتى وجدت نفسي ازداد معرفة وتجربة تضاف الى سياقات الحياة بلا تكلف وبلا استعلاء ..

وحين قررت ان اضع المسرح هدفا وقيمة رئيسة في حياتي ، لم اجد الا التقدير الكبير من الناس الذين احبهم ويحبونني ..

[من رسائل العاني الى المطبعي]



بين الحقوقيين .. وكان يمثل لهم في السفرات الى بعقوبة في أواخ
الاربعينات .. !

الفصل الثالث

ثلاثة في حياته :
الجمهور
والتاريخ .. والوطن ..!

في دورة الضباط الاحتياط للمفصولين السياسيين
في معسكر السعدية أواسط الخمسينات ..!

الوعي بالواقع

.. ومنذ كتب مسرحية (رأس الشليلة) في سنة ١٩٥١ ، ومثلها على مسرح الجمهور ، اتجهت الانظار الى (ممثل شعبي) طالما انتظره الجمهور ، في امل ان يصوغ لهم نداء الى الحياة بوسيلة السخرية ، ان يفجر فيهم السخط والغضب ، في اوضاع لا منطق فيها للحياة ، ثم يدخل يوسف الى صميم الحياة ، باحثا عن هذا (الواقع) الذي يحلم به الجمهور ، فوضع يده على (السر السحري) في هذا الواقع وكان الوعي فبالوعي تتحرر النفوس من الواقع المظلم والانانية والجهل ، كان الواقع في مسرحه : ابيض واسود ، هذا اقطاعي يمتص دماء الفلاحين الفقراء ، وهذا اداري لا يتكلم مع البسطاء (المراجعين) الا من انفه ، وهذا مرتش واحد من اذناب ، هؤلاء كانوا لونا اسود في مسرح يوسف ، وما كانوا الا جزءا كليا من نظام ، وكان يوسف من خلالهم يصارع صراعا عنيفا ، وبصوت جهوري ، وبايمان جهوري ، يكشف ويعري ، ثم يقول : هؤلاء هم سبب المشكلة ..

رأس الشليلة

وهذه المسرحية هي اولى مسرحياته التي تركت اثرا مهما وعميقا في نفوس المشاهدين ، مدة طويلة فمن خلالها استطاع يوسف ان يرسم صورة كاريكاتورية للنظام في بداية

الخمسينات ، ان يضع الجهاز الحكومي هدفا للنقد والانتقاد ، ليس على صعيد (الروتين) كما تصور بعض النقاد ، وانما وضع هذا الجهاز في تصوره الاجتماعي القائم على العلاقات المختلة بين الحاكم والمحكوم ، في مجتمع ينخر فيه الفساد وتشيع فيه المصالح الذاتية في رؤوس النظام ضاربة مصالح الناس ومصائرهم عرض الحائط دون وازع من قانون او ضمير ، ويزين لها مواقعها نظام رجعي خاو من اسلحة السلطة التقليدية ..!

المسرحية مجموعة من النماذج ، يتحسس بها المشاهد ، بل يكاد يعرفها ، لكنها تختلف عن نماذج الواقع الحياتي ، بامتلاكها مقومات التأثير الفني من خلال المسرح ، فقد ترى شخصية واحدة الا انها تبدو لنا وكأنها عدة شخصيات ، او ترى شخصية تبدو غير واقعية ، لكنها في سلوكها وموقعها وموقفها تقنعنا بواقعيتها وتصرفها ، وحتى هذه الشخصيات التي قد يرى فيها المشاهد (سلوكا فيه مبالغة) فان يوسف اراد في هذه المبالغة ، ان يثير في المشاهد (حالة الفضول) في متابعة امثال هذه الشخصيات ، فعبرها وعبر فكرها يمكنه ايصال الفكرة او القصة (موضوع المسرحية بالذات) ... وفي (رأس الشليلة) نكهة عراقية ، حب لما هو منتظر ، حب يدغدغ عاطفة الاكثرية ، فقد نقلت للمشاهد حالات عاشها وعرفها .. ورفضها ، وربما جاءت المسرحية ، في جوهرها ،

لتسخر من سلوك مرفوض و(هو) مفروض على الناس البسطاء ، ثم لتدين اولئك الذين جعلوا (سوءات) الجهاز الحكومي (صيغا) يجب ان تطاع .. كانت المسرحية تضحك المشاهد وتبهجه لكنها في ذات الوقت تجرحه ، لان يوسف اراد من هذا المشاهد ان لا يكتفي بضحكة عابرة ، وانما ينبغي عليه ان يحمل (موقفا عميقا) بمعنى انه اراد من (التسلية) ان تكون وسيلة يمرر بها احكامه في الجهاز الحكومي ، وهي لاريب احكام الاكثرية الوطنية ضد الاقلية الرجعية .. وقديما قال غوغول : التمثيل الهزلي عرض لحالة وحكم عليها ..!

والممثلون في هذه المسرحية كانوا عاملا آخر ، في اظهار قيمتها الفنية والسياسية والاجتماعية ، فقد كانوا جماعة مثقفة ، تدرك ماذا تريد ان تقول ، وما هو الشيء الذي توصله الى الجمهور ، بحكم مواهبها الحقيقية ، وبحكم انتمائها الى الاكثرية ، وبحكم وعيها للمرحلة .. وقدمت المسرحية لاول مرة على مسرح معهد الفنون الجميلة في سنة ١٩٥١ ، ضمن فعاليات جمعية جبر الخواطر التي اسسها يوسف في كلية الحقوق في اواخر الاربعينات ... وطبعها في كتاب سنة ١٩٥٤ في مطبعة (الرابطة) وقدم لها باهداء (الى طلائع المسرح العراقي الحديث الذين امنوا بان المسرح مدرسة الشعب فعملوا باصرار على تثبيت دعائم مسرح عراقي

جديد ..) وكتب مقدمة الكتاب المرحوم الدكتور صلاح خالص قال في نهايتها : (ان كل ما في هذه المسرحيات يؤكد لنا ان ابداع الاستاذ يوسف العاني لا يقف عند هذا الحد وانه سيخطو خطوات اوسع في المستقبل القريب) .. وكان ما توقع ..!

مسرح المشاغبين

وتنبهت السلطة الى ان هذا المسرح (في معهد الفنون الجميلة) الذي صعد اليه يوسف العاني وتياره يمثلون ويمزقون هيئة الانكليز وتجار الانكليز، هو مسرح (المشاغبين) همهم في لعبة المسرح ، ان يكون (منشورا) سياسيا لكل فصل وفي كل فصل ، فارسلت المتفرجين الاذناب ليملأوا المقاعد بلا تصفيق ، ففشل (المتفرجون) وعادوا خائبين ، ورأى يوسف هؤلاء فازداد (وعيا) بأهميته وباهمية مسرحه ، ورأى ان مسرحية واحدة (رأس الشليلة) لا تسد فراغا ولا تشبع نهمه (الجامح) الى جمهور محب وسخي ، فقرر ان ينتسب الى فرع (التمثيل) في معهد الفنون الجميلة (بعد تخرجه في كلية الحقوق) وهنا ، بامكانه ان يلعب دورا مهما في قلب مفاهيم التمثيل .

فهذا الفرع منذ أن تاسس في سنة ١٩٤٠ كان إنتاجه وجها تقليديا للمسرح العراقي ، لانه كان ثمرة قرار (رسمي) بعيد



صعد الى المسرح سنة ١٩٤٤

عن مشاكل الجماهير ، بل ارادوه ان يكون (دمية) مسرحية تتلهى بها الانظار او تدفع شرا من الشرور عن السلطة ، لكن يوسف جاء الى هذا الفرع فأحيا فيه صورة المسرح الشعبي ، كان طالبا فيه هو ورعيله في جمعية جبر الخواطر ، فنقلوه الى الساحة يتنفس بين الجمهور ، وقدم اعمالا اغضبت السلطة ، حتى فصلته ، من المعهد وهو في سنته النهائية ، ثم اعتقلته بدعوى ان نشاطه في معهد الفنون الجميلة يدخل في حقل النشاط التخريبي ، ولا سيما تقديمه مسرحية (مسمار جحا) وهي بالاصل مسرحية لعلي احمد باكثير لكن يوسف اختصرها من خمسة فصول الى فصلين ، ابرز فيها وجه جحا السياسي وليس وجهه الضاحك ، وحول (المسمار) الى رمز مشحون بالدلالات . (فاصبح جحا هو الاستعمار ومسماره هو شركة النفط) وكان يوسف في هذه المسرحية يوتر الاجواء ويعلن بلا تردد ان المسمار هو المصيبة ..!

المسرح الحديث

هذا المرجل لم يهدأ ، وكأن السلطة ارادت بفصله من معهد الفنون الجميلة ان يسكت لسان العاني ، وان تلجئه الضرورة الى الوظيفة ، ليصبح موظفا من الموظفين وينسى المسرح المرجل ، فما كان من يوسف الا ان اجتمع بابراهيم جلال

(استاذه بفرع التمثيل والمناصر الوحيد لتيار يوسف في معهد الفنون ..)

وجرى بينهما حوار :

● هل تؤازرنا في تأسيس فرقة فنية ..؟

- يا يوسف فكري معكم وقلبي ..

● لنجتمع في مقهى ....

- لا .. الاجتماع في بيتي ....

تكلم يوسف في اول اجتماع ، اثنى على ابراهيم جلال الذي التقت افكاره بتيار يوسف او بمجموعته، بل كان ابراهيم جلال يفيدهم بالخبرة الفنية والعلمية ، ثم قال يوسف : هذه الفرقة التي نسعى الى تأسيسها ينبغي ان تنهج النهج الذي سرنا عليه في جمعية جبر الخواطر ، بل نزيد عليه املا وثقة وتطورا .

اسم الفرقة : فرقة المسرح الحديث .

تاريخ التأسيس : ١٩٥٢ .. وبعد مخاض ، و مناقشة ، تمت الموافقة على اجازة الفرقة رسميا ، بهيئة ادارية تتكون :

١ - ابراهيم جلال - رئيسا .

٢ - يوسف العاني - سكرتيرا .

٣ - عبدالرحمن بهجة - محاسبا .

٤ - يعقوب الامين - عضوا .

وفيما بعد انضم الى الفرقة :

١ - مجيد العزاوي ٢ - وحميد قاسم ٣ - ومحمد القيسي ٤ - وراسم القيسي ٥ - فوزية قطان ٦ - وسامي عبدالحميد ٧ - وشكري العقيدي .. واخرون ..!

* * *

لم يكن في سنة ١٩٥٢ مسرح او قاعة لمسرح في بغداد الا قاعة الملك فيصل ، وهذه لا تستوعب فنا مسرحيا كما تريده الفرقة ، فما العمل ، وفي اجتماع للفرقة قال يوسف : (نبني مسرحا من طين وخشب) فوافق الاعضاء ، وبنوا بايديهم هذا المسرح في مقر جمعية النداء الاجتماعي في الاعظمية ، واحتفلوا بعيدهم ..

وقدموا ثمارهم ، وخاطبوا الحس الانساني وحركوا انبل المشاعر لدى المشاهد ووضعوه في جوهر المشكلة التي تحيط به ، كانوا او كان مسرحهم انتقالة واضحة في فهم دور المسرح وارتباطه بالجمهور ، وكان الجمهور معهم ، فقد رفض هذا الجمهور (استرداد ثمن التذاكر) عندما منعت مسرحية (رأس الشليلة) في مسرح نادي السكك الحديد سنة ١٩٥٣ ، وعدوا هذا الثمن (زكاة) تعطى لنضال الفرقة .. ثم رفضت السلطة اجازة مسرحيات اخرى واخرى حتى ضاقت ذرعا بحركة فرقة المسرح الحديث ، فسحبت اجازتها ، وقد جاء في الاسباب : (ان الفرقة تعرض الروايات التي تستهدف

النيل من اوضاع البلاد السياسية والاجتماعية ، ولعدم مراعاتها قرارات لجنة فحص النصوص التمثيلية ونظرا الى ان تصرفات هذه الفرقة تعد مضرة بالمصلحة العامة ولانها تقدم في مسرحياتها كثيرا من المشاكل وتنبه الناس عليها وكثيرا ما تضع اللوم على الحكومة لأنها المتسببة في افقار الشعب وحالته السيئة التي وصل اليها ..) لكن هل سكت هذا اللسان العاني ، وهو الذي قدر ان يحمل الصليب اينما اتجه ..

الافق الاخضر

وبوسيلة يتسلل عبر الحدود في اواسط سنة ١٩٥٧ ، وعن طريق دمشق يسافر الى الاتحاد السوفيتي ، (آه .. سأعود يابغداد اليك حينما تبسطين ذراعك ، حينما تتكسر اغلال سجونك ، اني ارى في سمائك افقي الاخضر ...) ويلتقي بقمة المسرح ، شيئا فشيئا يتحسس بالعمق الهادىء في عطاء الممثل بدفء وحيوية ، ويعقدون له ندوة ، ويتحدث عن مسرح العراق ، ثم يصعد في اعلى مسرح يمثل المسرح العراقي وتصفق له اكف سود ، بيض ، حمر ، من اجساد بشرية هائلة ، وحين هبط من المسرح [illegible] الاضواء ، سجلوا له احاديث ونشروا له صورة في التلفزيون وصورة في جريدة قرأها ملايين ، وفي ايام معدودات يستجيب الى رسائل اصدقائه في

لايبزغ وبرلين بالمانيا ، ويذهب ليجد اصدقاءه ينتظرونه في محطات القطار لينثروا على وجهه الورود ، وهناك يكتشف حالا مدرسة الساحر (برخت) ومدارس اخرى في المسرح ، وعاش لحظات (استرداد الروح) في اجواء فرقة برخت (البرلينر انسامبل) وما هي الا اشهر حتى يكتب الى اصدقائه في بغداد رسالة يقول فيها : مزقوا كل ماقرأتموه عن المسرح .. كله كذب ... المسرح الحقيقي هو المسرح الذي اشاهده الان ...) ولا سيما بعد ان استلذ وانتشى بمسرحية (بونتولا وتابعه ماتي) التي هزت وعيه ووجدانه ومعارفه في المسرح ..!

كان يهمه ان يسمع اخبار العراق ، فالرسائل قليلة والانباء تأتيه مترجمة ،ما حال سوق حمادة وتظاهرات المتظاهرين ، اين ابراهيم جلال ، وسنة ١٩٥٨ تبدأ بدايتها ، هل ابقى ساكنا لا ، لا .. لا بد ان اعاني ، ان اقدم مبررا لوجودي هنا ، ظل يضغط على اعصابه حزنا فوق حزن ، فقرا فوق فقر ، ويدعونه الى ڤيينا ، كان البرد والثلج والمطر والاغتراب ، والتقط الفكرة ، جمع اصدقاءه ، قال : (احبائي .. بدل التظاهرة ، بدل اعلان التضامن مع شعبنا العراقي ، علينا ان نقدم مسرحياتي : «فلوس الدوه» و«ماكو شغل» ..) وهذه المسرحيات التي كتبها يوسف في الخمسينات ارادها ان تكون (اعلانا نضاليا) عن كفاح

الشعب العراقي ويعرضها في مسارح كبيرة امام الشعب النمساوي ، لكن المصيبة انه لم يجد هذه المسارح كبيرة او صغيرة ... آه ... وزفر يوسف زفرة حملت معها همومه في الغربة التحدي ، وراح يدور في رأسه : بعد بحث طويل وجدنا قاعة في بناية قريبة من مكان تواجدنا الدائم بمقهى (شفارتز شبانير) .. ليس هناك مسرح ولا انارة ولا ستارة .. وقفت في وسط القاعة اتأمل المكان وكأنني في صحراء جرداء خالية الا من عزيمة الشباب الذين اصروا على ان يقدموا المسرحيتين بأي ثمن ، قررت بعد تفكير ان احاول الاستفادة من تجربة شاهدتها في لاييزغ لمسرحية (جان انوي) ـ القبرة ـ حينما قدمت امام الجمهور بلا ستارة وبملابس الممثلين انفسهم ، وبشكل يبدو لاول وهلة وكانه ليس عرضا مسرحيا ، بل (بروفة) تجري امام المشاهدين ليقولوا رأيهم فيها هكذا تمثلت هذه التجربة واقنعت بها اصدقائي وبدأنا نخطط لصيغة العرض .. كانت التجربة مثيرة ، وكنت اراقب المشاهدين النمساويين وانا امثل .. واراقب وانا اقف على المسرح بلا تمثيل حين ينتهي دوري ، ونجح يوسف في هذا العمل المثير ، ووجد صدى نجاحه في الصحافة النمساوية وفي نقد النقاد ، كان يؤدي في هذا النجاح دوره التضامني مع شعبه وهو في غربته التي اكره عليها اكراها ، وفي جانب كانت السفارة العراقية تراقب (هذا النشاط) الذي يمارسه يوسف

مع الطلبة ، وارسلت تقريرا الى بغداد تقول فيه : (
العاني يحرض الطلبة في مسرحياته سيئة الصيت) وبعثـ
الى السفير : (مزيدا من مراقبة تحركات المومأ اليه ..) حتـ
اذا ما احكموا الطوق على يوسف وجماعته سمعت الدنيا
ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، ويبدأ يوسف يرسي قواعد مسر
جديد ..!

الام المناضلة

فقد اعيد تشكيل فرقة المسرح الحديث في هيئة جديدة تتكون من :

١ ـ ابراهيم جلال ـ رئيساً .
٢ ـ يوسف العاني ـ سكرتيرا .
٣ ـ سامي عبدالحميد ـ محاسبا .
٤ ـ مجيد العزاوي ـ عضوا .
٥ ـ عبدالحميد قاسم ـ عضوا .

وافتتح يوسف مواسم الفرقة بمسرحيته الشهيرة (ام شاكر) اذ مازال حتى هذا التاريخ ينهج منهج (الواقعية الاشتراكية) وقبل ان ينهج فيما بعد : منهج (المسرح البريختي) ، فمن هي ام شاكر التي الهمت فيه دراما الواقع الجديد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ..

* * *



دور : في مسرحية (زينة النساء) !

وهذه المسرحية هي اول مسرحية سياسية تضع الام العراقية في موقعها الصحيح ، موقعها التاريخي والنضالي ، ليس في مرحلة معينة ، وانما عبر اجيال وتاريخ بعيد ، صحيح ان ام شاكر هي ام عاشت حقيقتها وفي زمن نضالي وفي صبر وجلد وكفاح ، لكن يوسف نقل هذه الام من كينونة الواقع الى كينونة التاريخ ، واسبغ على حياتها طابع المطلق التاريخي ، فبدت لنا : هي الام المعطاء التي تلد الخير والمحبة والصدق والوفاء في كل زمان ، وخصوصية هذه الأم ، انها مرتبطة بجذورها في التربة التي انجبتها ، فأنجبت هي ، ايضا ، الابناء القرابين ، وانجبت معهم صفات ، هي لاريب صفات موروثة من ام عراقية عريقة معرقة ، ومنذ خلقت هذه الام كان الدفاع وسيلة من وسائلها ، تدافع عن ولادتها الشرعية : حريتها الشرعية ، وطنها الشرعي ، وما الى ذلك من كرامة شرعية وبسالة شرعية ، وحب للحياة شرعي اصيل .. هي بلغة المسرحية ام الشهيد وام المقاتل وام العالم والشاعر ، وام الفتاة الباسلة الغنية بالشرف والعطاء ، وبمعنى اجتماعي : هي قائدة المسيرة عندما تشتد الشدائد ، وزراعة الخير عندما يسود الصفاء والسلام والمحبة ، هي امنا جميعا بلا استثناء ..!

تكونت هذه الام في عيني يوسف قطرة قطرة منذ طفولته ، عبر امه التي فقدها وهو طالب في الصف الثاني الابتدائي ،

وظلت تختمر في وعيه ولاوعيه حتى غدت : رمزا عبر كل امهات العراق ونساء العراق الفاضلات ، هو رمز سياسي لا شك في ذلك ، فيوسف ما رأى هذه الام (امه او ام غيره) الا ولودة ، عظيمة كريمة رآها مرة واحدة في حادثة **تشييع مهيب** لشاب قتل غدراً في سجن نوري السعيد وكانت تسير في المقدمة تناشد الناس ليثأروا له بصوت داوٍ .

سعودي السبع ماتنطفي ناره

يالله ياشعب خل ناخذ بثاره

كيف لا تلهب مشاعره وهذا هو سخاؤها وصوتها المملوء بالقوة والكبرياء وقد ترجمت المسرحية الى الفرنسية وكتبت زوجة الملحق الثقافي الالماني ببغداد مقالة تقارن فيها بين الام **العراقية** و(ام) مكسيم غوركي ، ورأت ان ام شاكر العراقية ، حالة خاصة وعميقة في سياق المسرح السياسي ..!

شعبنا

وربما كانت أعماله الفنية ، بعيد ثورة ١٤ تموز ، تجري كلها في مسرح سياسي ، لان يوسف خلق في طبعه سياسيا ، ولم تخلقه السياسة لشأن من شؤونها ، وانما هذا الطبع السياسي فيه ، ولهذا ظل يوسف امينا لافكار الشعب (العامة) في الحرية والدفاع عن الحرية ، وفي نهج طريق (**الفنان الكبير**) الذي تبقى سمعته وشهرته وحريته (ملكا)

للفئات الخيرة في الشعب ، وهذا ما رأيناه في برنامجه التمثيلي الذي قدمه من اذاعة بغداد تحت عنوان (شعبنا) في سنة ١٩٥٨ ..

كان امينا في تسجيل التاريخ ، فقد صور تاريخ الشعب العراقي الحديث ، في برنامجه ، على انه انتاج كثرة وليس نتاج افراد ، والتقط من هذه الكثرة ، الحلقات الحيوية في البطولة ، وحول البطولة الى رموز كان هدفها : الحرية ، منذ ابتدأ الشعب يرسم هدف الحرية في ثورة العشرين وما بعد ثورة العشرين ، وفي برنامجه اعتمد على بطون الكتب وفي احاديث الرواة وفي مذكرات الباحثين ، ولما انتشر برنامجه في الناس وفي كثرة الناس ، كان هؤلاء الناس مصدره الرابح في برنامجه : (وتهافتت عليَّ الرسائل من مناطق العراق كافة ، من الفلاحين والعمال والمثقفين ومن شيوخ عاشوا تلك الفترات .. وجاءني العديد من الناس يناقشونني ببعض ما ورد في البرنامج ..) ومنهم من جاءه مقدما له نفسه كواحد ممن وردت اسماؤهم في هذه البرامج ، وغير ذلك ، مما جعل برنامجه تاريخا يعرض على الطبيعة ، بلا افتعال في سرد احداث التاريخ ، بلا صنعة في ليِّ التاريخ واخضاعه لامزجة فئة من الفئات ، مستعينا بالمؤثرات الصوتية والموسيقى ، ناهجا في سرده للاحداث وتصويرها اسلوبا اذاعيا يتطلب خلق الجو اللازم للنصوص المكتوبة ، وبعث الحياة فيها بكل

وسيلة ممكنة ، سواء بالاستعانة بالقاء الممثل او بتعدد الاصوات او بتقطيع النص الى مقاطع ذات وحدة زمانية او مكانية ، وكان هدفه في ذلك ان يقرب التاريخ البعيد الى المستمع ، محافظا على ملامح الاحداث والشخصيات ببراعة النقل والرواية والحث والتمثيل ..!

* * *

ويوسف كان على وعي كبير ، بانتزاعه صور النضال ، من احداث مرت في تاريخنا ، ليبني منها : تاريخا عراقيا ، وهو التاريخ الحقيقي بعينه ، الذي يدغدغ ادق الاحاسيس في الاكثرية الكاثرة من الشعب ، اما الاقلية من هذه الاكثرية ، فهي التي ما كانت ترغب في برنامج يوسف ، وهم بعينهم : قاتلو الحاج نجم البقال وضاري المحمود ، واصدقاء الفرد موند والمزورون لوقائع ثورة العشرين والعارضيات الرارنجية ومعركة مضيق ميزوركة ووثبة كانون ١٩٤٨ والانتفاضة الشعبية في ١٩٥٢ وانتفاضة الشعب في ١٩٥٦ ، وهؤلاء المزورون يتكررون في مراحل التاريخ التي سبقت برنامج يوسف في سنة ١٩٥٨ ، وامثال يوسف يتكررون في ماضي الاحداث ، والتاريخ يتكرر حتما ، لكنه كان دائما في صالح الاكثرية التي كانت غاية يوسف في برنامجه ، الاولى والاخيرة ..!

ومن اخطاء هذا البرنامج ، انه أغفل ذكر انتفاضة مايس ١٩٤١ من هذا التاريخ الذي سجله ومثله يوسف ، وما كان

ينبغي ان تهمل انتفاضة مايس ، وما كان على يوسف ان يقبل (الضغوطات) من الاذاعة او من غير الاذاعة في نسيان (متعمد) لأهم حلقة حيوية في تاريخنا القومي ، ويوسف نفسه خرج الى هذه الانتفاضة فتى يصفق ، وطالبا يهتف ويشتم الانكليز وصنائعهم في بلاط الانكليز ..!

رأى الوطن مبكراً ..

لكن الوطن عاش في يوسف مبكراً ، وكان في حياته احساسا مبكرا ، ولهذا لا اشك في انه (تعمد) في نسيان ماضي مايس ، انما كانت الرياح العاتية تضرب جناحيه فتقعده كسيرا بلا حول وقوة وبلا نقاش ، وفي كتاباته الاولى وفي سيرة اشواقه وصبواته وفي مضامين مسرحياته من منتصف الاربعينات ومازال ، كان الوطن يتنفس فيه ، يعيش معه ، يأكل ويجوع ويشبع معه ، يعني ان يوسف كان وطنيا بالفطرة ثم بالوعي ثم بالسياسة ، ثم بالفن ..

كان طفلا يرى نساء اسرته يتحدثن همسا تارة ، وبصوت مسموع تارة اخرى ، عن ازواج فقدوا ، واخوة ذهبوا ولم يعودوا ، وعن اباء واقرباء ، ومع الهمس والبكاء كان يلتقط كلمة (سفربر) ولا يعرف ماذا تعني هذه الكلمة ، ويوما بعد يوم يعلم ان رجالًا من اسرته سيقوا بعيدا عن الوطن ، ليحاربوا ولم يعد منهم الا القليل القليل ، وادرك اذ ذاك ان

الوطن مغتصب في (سفربر) .. وسأل اخاه الكبير : لماذا يقاتل الانسان ، وماذا يعني الوطن .. ثم يجلس معه عمه في مجلسه الدائم ويستمع الى احاديث الكبار عن الانكليز وعن بطلان تصريحاتهم يوم ادعوا انهم جاءوا الى العراق محررين لا فاتحين . وفي المدرسة يقرأ امام حشد (موطني موطني) وفي مدرسة قرأ : (يا اوربا لا تغالي لا تقولي الفتح طاب) و(هيا ارتقوا ياقومنا ، هيا الى العليا بنا) .. ويكبر قليلا ويتساءل ماذا يعني الارتقاء وما هي اوربا ، ويلتقي بشعر الرصافي الذي كله رموز تتصل بالوطن ، ويلتقي في تظاهرة ، في اجتماع عام ، وكلهم في هذه التظاهرة يهتفون بالوطن ، حتى نبت الوطن في قلبه ، في البداية نبت عاطفة ، ولما توالت قراءاته ونما احساسه بالاشياء وتعمق وعيه ، رأى ان الانسان بلا وطن (او وطنية) فيما بعد ، فانه يفقد انسانيته ..!

* * *

قرأ التاريخ في السياسة وقرأ السياسة في التاريخ ، حتى اخذ يربط بين ما يقرأ وبين مسؤوليته كفنان ، اكتشف ان الوطن هو الانسان ، والانسان حرية اذا سلبت الحرية من هذا الانسان استلب الوطن ، انسان وذات وحرية ، كانت هذه المفردات الشفافة يحولها في قلبه الى قاعدة في بناء مسرحه السياسي ، اكتشف عبر معاناة السجن الغربة وجمهوره

الكثير الكبير ، ان المسرح وطنه الثاني ، وطنان في غاية واحدة : ان يكون الانسان جوهر الحقيقة الكبرى ، لا يكون هذا مكشوفا في بعض مسرحياته لكنه على كل حال غائر في الاعماق ، في تلك الدلالات التي تهدف اليها مسرحياته ، وقد يصل هذا الى المشاهد او لا يصل ، لكنه في كل الاحوال يأتيك بهدوء قائلا : انا الانسان في كل مكان ، ويوسف في مسرحية (اني امك ياشاكر) وطن مباشر ناطق ، وفي مسرحية (صورة جديدة) وطن صارخ ، وفي مسرحية (المفتاح) وطن مذبوح ، ذبحته انظمة نكسة حزيران ١٩٦٧ ، ثم هو في مسرحيات (الخرابة) و(الشريعة) و(الخان) وطن يعيد انفاسه ، يحاور انسانا جديدا ، بفكر سمته الاولى : التحدي ..

* * *

واذا اريد لنا ان نفهم يوسف ، فينبغي ان نفهم تحديه ، فقد ولد بالتحدي ، وتربى بالتحدي ، وعاش الغربة بالتحدي ، وهو مازال يعيش ربيعه الجديد بالتحدي ، وهكذا مسرحه ما نشأ الا في دراما التحدي ..!

○ بلغة الرواد ..

راقبهم واوجز فيهم كلمات :

● عوني كرومي مخرج مجتهد يختار الصعب ليبدع ..

● شذى سالم مسرحية وسينمائية تالقت ثم اختفت في الظل .. حرام !

● سناء جميل ممثلة كبيرة مبدعة وصعبة !

● سعد اردش مخرج مجدد خلق العديد الذين لم يتجاوزوه !

● سمير عصفوري مخرج بدأ مبدعا وسار حتى تعب ليميل الى المسرح السهل ..

● دريد لحام ممثل موهوب عرف كيف يوظف مسرحه بأسم السياسة لاستقطاب الجمهور الواسع

● ماجدة الرومي فنانة تضم كل مقومات فنانة الغناء القديرة والمبدعة ..

● نضال الاشقر قوية في عطائها المسرحي ... رائدة في المسرح اللبناني ..

● اقبال نعيم شابة تسعى من اجل ان تظل متوهجة !

● يوسف شاهين مجنون السينما العربية العاقل وفيلسوفها المبدع !

○ في استوديو الفنان ..

وكانه امام الشاشة قال مفتخرا :

س ـ لماذا تحب ..؟

ج ـ كي اديم حياتي ..

س ـ لو حرموك من المسرح ..؟

ج اموت !

س ـ من هم ابناؤك ..؟

ج ـ الجيل المبدع من شباب مسرحنا الجادين في طريق العطاء .

س ـ اي فيلم تعده بداية للسينما العراقية ..؟

ج ـ عليا وعصام دون شك

س ـ وما هو الفيلم الذي ظل علامة للسينما العراقية ..؟

ج ـ سعيد افندي !

س ـ اي دور تعتز به في المسرح ..؟

ج ـ دور بنتولا في مسرحية (البيك والسائق) ..؟

س ـ وفي السينما ..؟

ج ـ دور سعيد افندي

س ـ والتلفزيون ..؟

ج ـ دوري الاخير في مسلسل (امنيات صغيرة) ..

س ـ المخرج الذي تحب العمل معه ..؟

ج ـ اكثر من واحد ..

س ـ اذكر واحدا ..؟

ج ـ قاسم محمد ..

س ـ اي بلد تحب العيش فيه ..؟

ج ـ العراق

س ـ اي قطر تحب زيارته ..؟

ج ـ اكثر من قطر ..؟

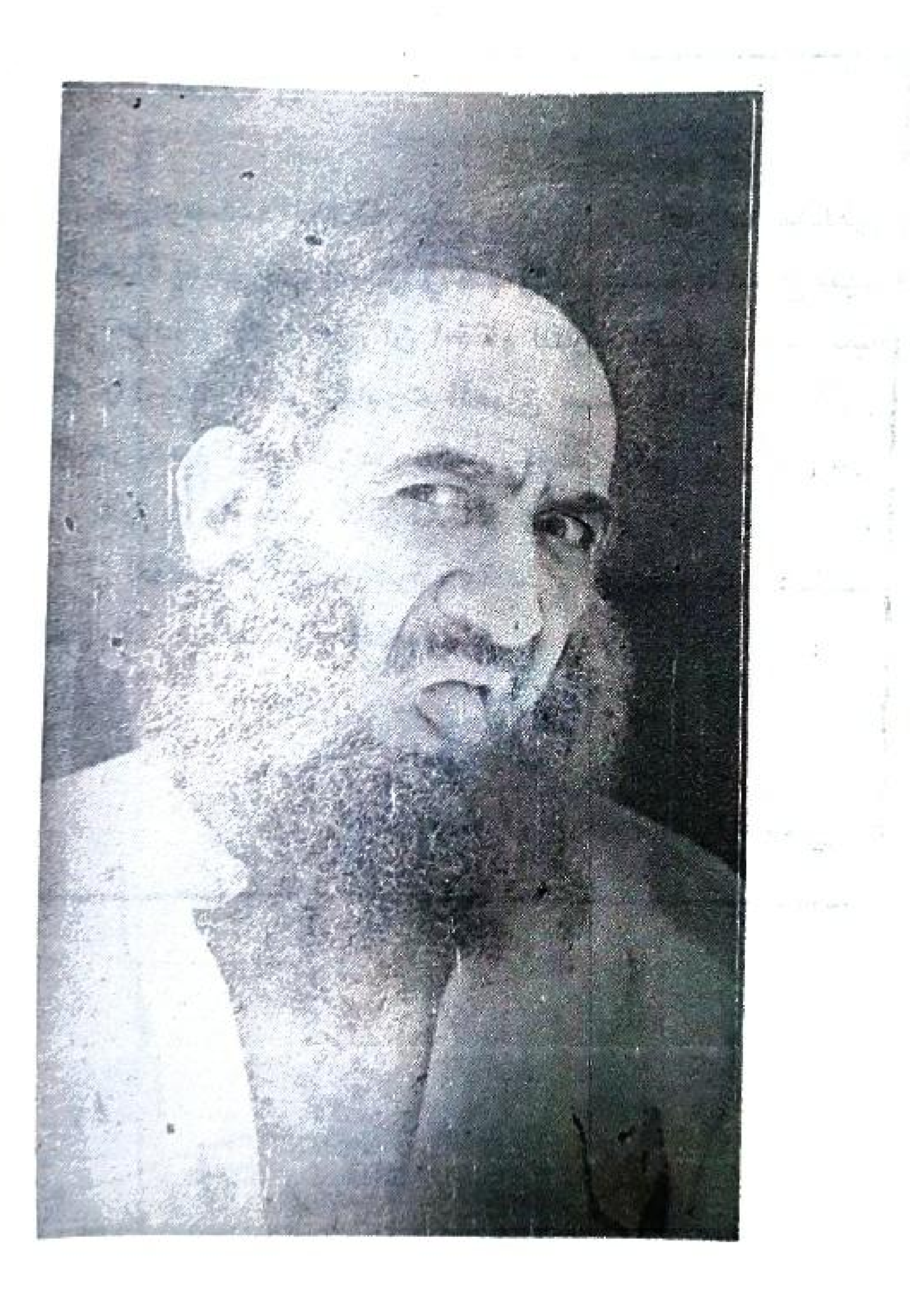
س ـ اذكر خمسة ..؟

ج ـ فرنسا ، النمسا ، اسبانيا ، انكلترا ، ولبنان قبل ان يحترق ..

○ اختيار صعب ..

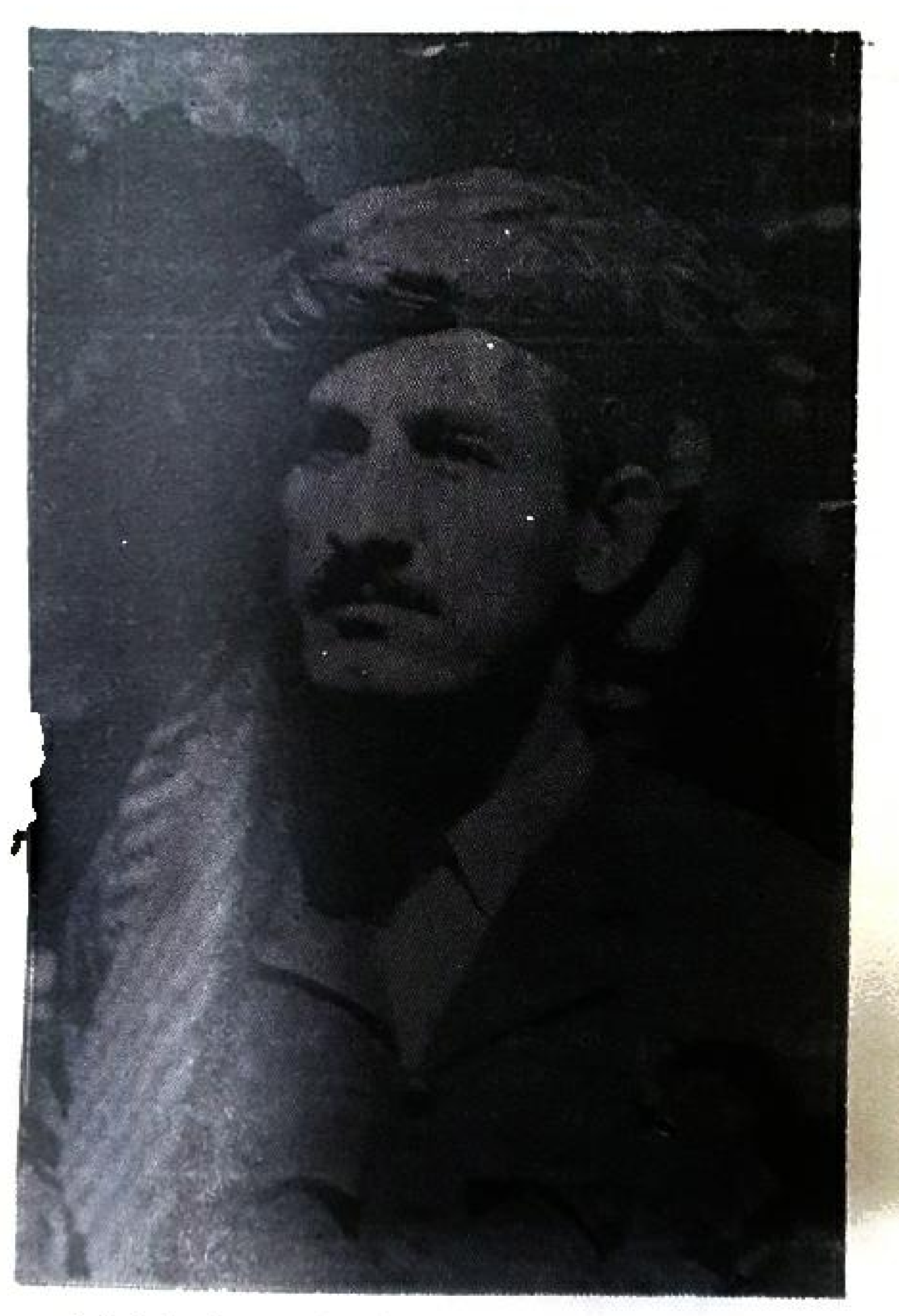
ولكن حين وصلت العلاقة بيني وبين بعض اطراف عائلتي الى ان الحياة بمفهومي تدخل في سياق السياسة والمسرح ظهر التناقص حادا ، فكان علي ان اختار الدرب والطريق الصعب واخترته راضيا ، حتى غادرت العراق سنة ١٩٥٧ ، انني اليوم اشعر بدين كبير لكل من علمني ووقف معي او ضدي من اسرتي ، لان كل موقف كان له اثر في نفسي وفي تصوري ، دفعني الى التفكير اكثر من مرة ، وقادني الى البحث الصائب عن الحقيقة الانسانية الكبيرة ..!

[من رسائل العاني الى المطبعي]



الفصل الرابع

في سنة ١٩٥٨
كتب رقيب الداخلية :
إحذروا يوسف العاني ..!



يوسف العاني في (شقلاوة) سنة ١٩٤٨

البريد

.. ومنذ نذر يوسف جهاده الفني الى فئات المثقفين ، وهؤلاء يشاهدون الحياة بعمق ، منذ قدر له ان يحمل اتعابه على اكتافه ، مهما كانت صفة تضحياته في اتعابه ، والشهرة تأتيه حارة شهية ، لكن هذه الشهرة في بعض جوانبها قد تكون (وبالا) عليه ، اذ ان الفنان الحقيقي كلما ارتفع كثر خصومه ، وصار كثير من هؤلاء يحرثون ارض حياته وينبشون فيها ادق تفاصيله ، باسباب واعذار لا عد لها ، وفي هذه القاعدة ولاسباب اخرى انسحب فنانون وادباء من ارض جهادهم اما الى صمت فتسدل عليهم ستارة التاريخ واما الى مواقع مضادة كان هؤلاء في موقف النقيض منها ، الا فئة من هؤلاء ، لا يعيرون اهتماما للتعيير او نبش الدفين في ارض حياتهم او القذف او التشهير .. ومن هؤلاء يوسف ، وقصته معروفة في هذا التحدي ، فهو آمن ان المسرح رسالة ، فهو اذاً مؤمن بعدالة رسالته ، وآمن ان له جمهورا يؤمن به جمهورا اخر يؤمن في القلب وما دام هو يؤمن بهكذا جمهور فانه لا بد ان يبادله الحب فيصمد في طريق رسالته ، وقيل قديما ، انه كلما شاخ الرجل كبر عليه دين عقله ، ولامشاحة بعد ذلك ، في ان الشهرة الحقيقية تزرع في اعماق المبدعين (الثقة الكبيرة) التي نسميها الكرامة ، ويوسف تحول الفن في شهرته الى

كرامة ، ويوم ولد في بيت معروف ، وفي بيئة عريقة ، في شعب عريق كانت الكرامة عنوانا روحيا كبيرا في تنشئة الرجال ، ولا اظن يوما ان يوسف تنازل عن كرامته ، فيوم عاش مشردا في زمن نوري السعيد ، يعرض نفسه وفنه في دول اوربا ، كان يجمع اياما في وجبة طعام واحدة ويدخر الباقي من دراهمه لشراء بطاقة الدخول الى احد المسارح الكبيرة ، وهؤلاء الخصوم او الذين يثيرون في سمائه الغيوم يعرفون في يوسف هذا الأباء فتركوه على حاله ينصت بدقة الى ضربات قلب جمهوره ، فيترجمها الى كائنات منظورة حية على المسرح ..!

* * *

يوسف صار (ملكا مشاعا) وفي قول ان المبدع الحقيقي اذا صار ملكا مشاعا يصبح (سلعة مشهورة) يتصرف بها الجمهور ، ومن القوانين الثابتة في الفنان او الكاتب ، انه بحواسه المكثفة يعرف من هو جمهوره ، بل عيوبه ، بل الوانه واجناسه ، إذا كان هذا الفنان مؤمنا بدوره وبأهمية دوره في المجتمع ، واحدى وسائل تعرفه على جمهوره : الرسائل ، وفي كل يوم تنهمر الرسائل على بيت يوسف ، وعلى مكتبه في الاذاعة ، وعلى (زواياه) في الجرائد ، ولا شك ، انه عبء جديد على شهرته ، فهو لا بد ان يرد على المحبة بمحبة ، فيأخذ ذلك من وقته ، ولا بد ان يشطب على خطأ فني في رسالة ما يقول لصاحبها (افعل كذا ..) وهذا يمتص منه او

من مشاريعه زمنا هو بحاجة شديدة اليه ، وهكذا اصبح البريد من همومه اليومية ، واذكر انه قضى اسبوعا كاملا (في زمان ما) يرد على رسائل جاءته بعد مدة سياحته الى بلد عربي ، لكنه على كل حال ، يجلس الى هذه الرسائل بازاء حالة عذبة ، من حالات تقربه الى ماضيه وحاضره في آن ، وتشعره بأنه كينونة مطلوبة ، هذا اولا ، وثانيا انه عبر هذه الرسائل يمتحن ذاته الفنية ، فبعضها يحمل اليه (تصحيحات) تنبهه الى امور قد غفل عنها يوسف في اعماله المسرحية او الفنية الاخرى (دون قصد منه طبعا) وبعضها يشير الى حالات كان على يوسف ان يوليها اهمية اكثر ، او ان يتركها الى زمن آخر ، او ان يكون فيها صارما واضحا في احدى الرسائل كان صاحبها يشتم يوسف بتوقيعه الصريح ، فلم يرد عليه يوسف في الحال ، (وهو الذي اعتاد ان يرد على الرسائل على الحال) فبدل ان يبعث اليه رسالة ، كتب مقالة اوضح فيها وجهة نظره دون ان يشير الى تلك الرسالة والى صاحب الرسالة الذي قرأ المقالة وبعث الى يوسف يعتذر ويؤكد حسن نيته .. وفي ما بعد امتد الود اليهما وصارا صديقين ، صار الشاتم خلا وفيا ، يكتب الى يوسف ويستشيره في بعض كتاباته .

* * *

وتصله رسائل تحمل نماذج من مسرحيات بأربع صفحات ، فينصح صاحبها او صاحبتها باعادة النظر في كتاباتها ، او بترصين ثقافة صاحب الرسالة وتكرار القدرات من جديد ، ويدعوه الى البحث المتواصل والتعلم ، ثم تأتيه رسائل هي (مواد فنية) فيكتشف فيها موهبة متفتحة ، يهذب وينقح فيها وينقح في الاصل ، فيكتب لهم : (ان انشروا او لا تنشروا) او (قدموها للتمثيل او لا تتعجلوا ..) .. وكأنه في بيته صار صحفيا او مدير دائرة فنية او مشرعا في قوانين الكتابة ، فماذا يعمل ازاء كل ذلك .. وهو الذي ابتلي بالشهرة وصار الجمهور عاشقا لآرائه وحكمه وتجاريه ، ماذا يعمل ازاء شيخ انهكته احباطات التجربة فيريد منه ان يقوم سيرته الفنية ، او ازاء امرأة نصفها عشق وهو الذي لا يريد ان يدنس اصابعه بالاعيب الدلع والمهارة الشيطانية ، وماذا يريد ان يقول لسياسي فاشل يكتب اليه : (يا يوسف اكتف بماضيك ولا تصعد على مسرح الحال) ، ينفعل ويهدأ ويرتفع انفعاله وهو المبتلى بمرض الضغط ، لكنه يجد عزاءه في هذه الكثرة من الرسائل التي تطربه ايما طرب ، من محامين وطنيين وقضاة في محاكم الجناية ، ومن عمال كانوا في زمن من عداد (اليسار المثقف) ومن جيل جديد يدرك ان المسرح ليس وسيلة ضاحكة ، بل وسيلة مدمرة للاوراق الهشة في المجتمع ..!

حتى ان لشهرته جاذبية جذبت اليه سمعة فنية في آفاق هي غير آفاق بلده العراق ، فتوثقت فيها صداقات وعلاقات عميقة مع فنانين عرب واجانب ، فصلته بالرحابنة (ولا سيما عاصي ومنصور وفيروز والياس ..) ما زالت على حالها ، فقد ابتدأت في بحر الستينات عندما عاش يوسف في بيروت قريبا منهم ، يقرأ ما يكتبون ، ويستمع الى الحانهم ، في مملكة اللحن الرحباني ، ثم يكتب نقدا في ما يظهر الرحبانية على المسرح ، ينقدهم بعاطفة وهم يقرأون هذا الذي ينشره يوسف في صحافة بيروت ، ولا سيما عاصي الذي كان معجبا باقوال يوسف وملاحظاته ، ومازالت فيروز صديقته ، فقد عرفها في العمق : لطيفة مرحة ، على خلاف قول من يظن بأنها (جدية لا تبتسم) لكن من المؤكد ، ان رحيل عاصي عنها الى آخرته ، وفقدانها ابنتها ، قد اوقعها في مرارة الحزن ، فزاد هذا من جديتها ، ولم تعد تبتسم ، كما كانت عليه ..!

* * *

وكذلك كان له حديث ونقاش مع اجيال الفن العربية البارزة ، وبعضهم صار صديقا له ، ويقومهم وهم يعرفون به : يوسف العاني ، ذا الجاذبية الفنية العراقية ، وفي بيته لوحات ورقية الصق عليها مجموعة صور مزينة بتواريخ وذكريات ، هي من بين عشرات الصور التي تشرح (صداقاته)

من هؤلاء الفنانين العرب ، ومنهم : سعد اردش ، فريد شوقي ، عبدالرحمن الشرقاوي ، يوسف شاهين ، الفريد فرج ، يوسف ادريس ، نعمان عاشور ، يحيى شاهين ، شوشو ، ريمون جبارة ، انطوان ملتقى ، سعد الله ونوس ، الطيب الصديقي ، عزالدين المدني ، وفي ركن اخر مجموعة اخرى من الصور لكنها لصديقاته من الفنانات المعروفات اللاتي كتبن له اجمل ذكرياتهن ، ومنهن : سناء جميل ، سميحة ايوب ، محسنة توفيق ، نضال الاشقر ، عايدة عبدالعزيز ، مديحة حمدي ، فردوس عبدالحميد ، منى واصف ، سهير المرشدي ، وليوسف قدرة عجيبة في التحدث مع انواع النساء ، ويتكيف مع امزجتهن وعواطفهن مذ كان طالبا في كلية الحقوق في اواخر الاربعينات ، وسبب هذه القدرة ، هو انه في شبابه احب واخفق ، وتطلع واختار وفشل ، فما ان يجد ويختار واحدة ، وهذه الواحدة تصطدم مع اختيارته في الحياة حتى يهجرها بدون عودة ، وثمة سبب آخر ، ففي يوسف عالم واسع من العاطفة والحنان يلائم عالم المرأة ويلتقي به التقاء طبيعيا ، فلذلك تتحدث النساء الفنانات عن عالم يوسف المملوء بالطيبة والبراءة ، بأنه مملكة الدفء ..!

* * *

وله كذلك في الشرق وفي اوربا صداقات ، فمنذ سنة ١٩٥٩ اقام مع المخرج البلغاري الكبير (فيليب فيليبوف) علاقة

فنية ، كان يجددها عبر لقاءاته في الرسائل وفي المؤتمرات ، وقبل ان يفارق الحياة ، التقى به في مؤتمر المركز العالمي للمسرح بمدريد سنة ١٩٨١ ، وكذلك كانت له صلة مع أكهارت شال الذي يصفه النقاد بانه (الممثل المعجزة) من ممثلي مسرح برشت في البرلينر انسامبل ، ويحتفظ بذكرياته مع الفنانة الفرنسية (داليدا) ذات الاصل المصري .. (التي انتحرت انتحارا غريبا في ما بعد ولاسباب مجهولة ..) ..!

العالمية

ولو كان لنا تدبير لاستطاع يوسف ان يصل الى (العالمية) وينقل مسرحه العراقي الى شعوب وامم ، لكننا ابتلينا بالقليل وزهدنا بالاقل القليل ، واثرنا ان يكون افذاذنا في اماكنهم يكتفون بالقليل القليل ، ومع هذا فقليل يوسف اطل على العالم من زوايا ، بعضها بخجل ، وبعض بتواضع ، وبعض بتلقائية، فقد ترجمت مسرحيته (اني امك ياشاكر) في مجلة الاوريان الفرنسية في سنة ١٩٦٤ ، وترجمت مسرحيته (المفتاح) الى اللغة الالمانية ، وفي هذه اللغة وضع في الانسكلوبيديا (واحد من المسرحيين العرب) بتعريف شخصيته كاتبا وممثلا ، كما وضع في قواميس لغات اخرى (عدا التعريف به في بيانات ووثائق الجمعيات الفنية العالمية في بعض البلدان) وهو تعريف فني (خالص) من دون اية تأثيرات .

واذا كانت المؤتمرات المسرحية احد المنافذ التي يبزغ فيها وجه الفنان ، فان يوسف اطل على العالم من خلال سبعة وثلاثين مؤتمرا ومهرجانا مسرحيا ، في اكثر من قطر اجنبي ، في الشرق وفي الغرب ، وقدم فيها ما قدم : وجها مسرحيا عراقيا ، يحمل رائحة الارض (الخصوصية العراقية) وتراث المحبة والسلام والابداع المتواصل .. كان يجلس في قاعات العالم ويتحدث بلغة بابل ، وينقل حديثه الى تلفزيونات والى صحف ، وتحدث في هيبة الجميع لانه ينسى نفسه ، لانه في البلدان الاجنبية اراد ان يكون العراق هو المتحدث بلغة الآثار والماضي والمجد ، بل بلغة العراق الدائم ، لم يفرط بكلمة ، لم يخترع له القابا أكثر من تاريخ العراق ، كان الوطن فيه فنا وعاطفة واسما ، حتى ان الصحافة الاجنبية كانت تقدم كلمة (العراقي) على اسمه لكثرة ما سمعت عن حبه لبلده ..!

وكان موضوع بحث في اطروحات اكاديمية ، مثلما كان موضوع مقارنة في اكاديميات عالمية ، فقد تناولته ناقدة اسبانية في اطروحتها عن (تطور المسرح العراقي والعربي) ، وعدته (علامة مضيئة في هذا المسرح) .. او كما تناوله صلاح القصب في اطروحته في رومانيا : كاتبا ومخرجا وممثلا في المقدمة من جيله ، او ناقداً ساخراً في دراسة الفنان بدري حسون فريد عن (الام) في المسرح .. يوسف يصلح ان يكون موضوعا اكاديميا ، لان هناك منهجا في تطوره ، الزمني او

التاريخي ، ولان تطوره خضع لتطور الموضوعات التي عالجها مسرحه او المسرح العراقي ، ولانه بعد ان ارسى قواعد وتقاليد في المسرح العراقي صار مدرسة لذاته وبذاته ، واصبح العديدون يحتذون به ، وهذه كلها عناصر تشويق لطالب الاكاديمية ، او عناصر منهجية مهمة في الشخصية ..!

وفي سنة ١٩٥٧ قدم في موسكو وعلى مسرح ستانسلافسكي مسرحية (جحا والحمامة) وهي محاولة في فن التمثيل الصامت (البانتومايم) كان يقدم فيها التجربة الجديدة الرائدة في مسرح التمثيل العربي الصامت ولاول مرة ، وقد منحه السوفيت والمجموعة التي شاركته التمثيل ، جائزة تقدير كبرى ونوهت بذكره صفحات الفن السوفيتية ، وفي سنة ١٩٨٤ قدم في باريس مسرحية (الملا عبود الكرخي) التي كان من جمهورها عدد كبير من الفنانين الفرنسيين .. الذين تعرفوا على خصوصية الفرد العراقي في اكثر من فقرة من فقرات المسرحية ، وكذلك اعاد تجربة هذه المسرحية في لندن في سنة ١٩٨٥ ، فنال فيها شهرة صحفية .

وايضا ، كانت السينما ميدانا آخر اخترق يوسف فيها حدوده الاقليمية ، ففي سنة ١٩٥٨ اطل على جمهور كل من الاتحاد السوفيتي وجيكوسلوفاكيا والصين ولندن ، في فيلم (سعيد افندي) وكانت شهرته او شهرة الفيلم تتوازن مع عظم المشكلة التي قدمها ومع مستوى التمثيل فيه رغم

بساطة التمثيل ، لكنها البساطة العميقة .. وفي هذه الزوايا (القليلة) التي بزغ فيها وجه يوسف المسرحي على العالم (حارا شهيا اصيلا) لفت اليه انتباه المسرحيين ، فانتخبوه عضوا في اللجنة التنفيذية للمركز العالمي للمسرح (ممثلا فيه المسرح العربي) وفي ذلك وسيلة قربت يوسف الى كبار الممثلين العالميين ، وهم هؤلاء رأوا فيه : العربي الفنان الذي يحمل السيف والمسرح على كتف او كتفين قويتين في الاثر والتأثير ..!

الافق العربي

واذا كان يوسف قد اقام علاقة تجربة صميمة مع فنانين عرب ، وان هؤلاء وجدوا فيه المسرح الامين في التجربة العربية ، فلأنه كان يقدم لهم اسما مزمنا في التجربة ، اقترن بتاريخ مشحون بالظواهر الفنية ، ولو لم يكن له هذا التاريخ او هذا الاسم المعروف ، لما اشتهر في الافق العربي ، ولما كان محط خبرة واستشارة في المؤسسات المسرحية العربية ، فمنذ سنة ١٩٥١ اجتهد في ان يمد صوته الى العرب ، عندما ذهب الى الكويت يمثل فصولا مسرحية في مسارح المدارس ، اجتهد وكان ناجحا في اجتهاده ، ومازال بعض جيل الخمسينات في الكويت (وفي مقدمتهم يعقوب عبدالعزيز الرشيد ـ وكان مديرا لمدرسة المثنى الابتدائية التي قلب يوسف ساحتها الى مسرح للتمثيل) يتذكر ذاك الصوت الدافىء والحركة المعبرة التي

اظهرت يوسف : عراقيا ممثلا وعراقيا غاضبا وعراقيا يحمل رسالة اللغة والوجدان الى عرب الخليج العربي ..!

* * *

وشيئا فشيئا بدأ صوته ينتشر ، بدأت كلماته ترتسم في نفوس العرب، وما ان جاءت بداية الستينات حتى رأيناه (محررا ناقدا في المسرح) في مجلة (روز اليوسف) المصرية ، ومحررا فنيا في جريدة (لسان الحال) ببيروت ، وفي بيروت اندمج مع الاسرة الرحبانية في كل اعمالهم المسرحية (قرابة خمس سنوات) بدءا بمسرحية (الليل والقنديل) وحتى آخر مسرحية اشترك فيها قبل اشتعال فتيل الحرب اللبنانية ، وهي مسرحية (لولو) ثم يعود الى بيروت سنة ١٩٧٤ ، مساهما رئيسا في مؤتمر مسرح العالم الثالث الذي ما ان صعد الى منصته حتى حيوه بتحية الود وانتخبوه رئيسا لهم في هذا المؤتمر .

وهو الزائر المزمن الى مسارح القاهرة ، فما يمضي عام الا ويشاهد مسرحا من مسرح رواد القاهرة او مسرح الجيل الجديد ، فعرفوه ناقدا بمحبة ، لانه كان يشاهد ويكتب ، وبعض كتاباته اثارت انفعالا ، وتفاعلت فيه آراء وافكار ، ثم عرفوه ممثلا بارعا في تحريك البرك الفكرية الجامدة ، ويوم قدم مسرحية (البيك والسائق) قال ناقدهم : (هذا الممثل العربي) ، بل قالت الناقدة الدكتورة لطيفة الزيات : (وما

رأينا الا مسرحا عالميا ..) .

وما ظل مسرح في بلدان المغرب العربي الا وليوسف فيه صدى وصوت ، لان اولئك العرب شاهدوا في يوسف ، بغداد الازل .. البغدادي الذي لا يقبل الا ان يكون جادا في محيط الهازلين ، ثم اجلس اولئك في (مجالس التراث) وما كان العراق في هذه المجالس الا تراث الكبرياء واياما ابقت في ذاكرتنا معاني النبل والسمو والديمومة ، كان ينتقل من مدينة الى مدينة ، من شمال المغرب العربي الى جنوبه ، والانسان في قلبه ، يتحدى به ظالما او قزما من اقزام الاستبداد ، وكان كلما يرى جمهورا يغني اليه ، ارتفع غناؤه الى الاعماق ، بل ا كان يتذكر ماضيه ، انه ما جاء الى المسرح الا بوسيلة الانسان ، وبه اقام شهرته بين العرب ..!

جمهور وتاريخ

لكن لنتساءل ، ما هو جمهور يوسف ، وبمعنى آخر ، هل هو واحد هذا الجمهور الذي ينشد الى مسرحه ، بطبقاته وبآرائه ، ثم هل توسع جمهوره ، اقول : نعم ، استنادا الى تطور يوسف السياسي والثقافي ، وبأدلة .. هي من تطور الجمهور ذاته ، كما ترى :

١ ـ جمهور بيئته الاولى ، وهو الجمهور (الخام) الذي قوامه : عمال بلا وعي سياسي ، افراد بلا تنظيم سياسي

وهم بحسب تشكيلهم التاريخي كانوا من عمال الزوارق (البلامة) ومن الحمالين الذين عملوا في خان عمه ، ومن العاطلين الذين ترهلت بهم مقاهي سوق حمادة ومحلة خضر الياس ، ومن اترابه وجلهم طلبة فقراء ، وكان يكتب لكل هؤلاء سطورا بمشاهد صغيرة مبتكرة ، لكنها تعتمد حقيقة موجودة منظورة في مجتمعنا ، وهي الحقيقة التي لا تتجاوز حدود لشرائح ؛ الظلم ، الجوع ، الفقر ، البطالة ، وكان يوسف ستوعب هذه الموضوعات ويحولها الى مفردات مسرحية ، وسيلة الهزل والسخرية والتنكيت ، وتلقى اذنا صاغية نفسا راضية وقلبا هاويا ، بصفتها موضوعات مفروضة على واقع ، ويوسف يؤكد على وجودها بالتحريض المتعمد التفجير المتعمد والوعي المتعمد ، اذ كان اسبق هؤلاء مشاهدين وعيا وخبرة ، بغريزته او بقراءاته ..!

٢ - يتحول هؤلاء الطيبون (جمهوره) من مادة (خام) - مادة فاعلة (رافضة) في بداية الخمسينات ، صار جمهوره : فئات ، وكلها تنادي بالانسان ، فهو هنا ازداد تجربة ، وكلما ارتبطت تجربته اكثر فاكثر بالجمهور ، صار مسرحه (مسرح جماهير) وهنا اخذ يربط مفردة (الفقر) بمفردة السياسة ، ومفردة السياسة بمفـردة (الوعي السياسي) ، وهذه بمفردة (المعارضة) هنا ايضا لبى نداء الجمهور بمعارضة انظمة الخمسينات ، ثم لبى نداءه

يدرك ان له الجمهور الحقيقي بفطنة الفنان الموهوب الرائد ، من دون استفتاء ، من دون احصاءات رسمية ، فقد رزق عدد من المبدعين في كل مراحل التاريخ ، موهبة حدسية في تشخيص : من هو جمهورهم ، بل يعرفون بالدقة عدد جمهورهم ، الوانهم ، صفاتهم واين يتكاثرون ، وأمر كهذا ، يشجع هؤلاء الافذاذ على ان يكونوا ضمائر حارة مرتبطة بالاكثرية دائما ، وباتجاه التاريخ الصحيح دائما .. ويوم عاد يوسف الى العراق في سنة ١٩٦٨ ، وقدم مسرحية (صورة جديدة) على مسرح كبير ، تسارع الجمهور اليه ، مفترشا ارض القاعة بعد ان ضاقت الكراسي المخصصة بالعدد الكثير الكثير ، وما ان حلت ساعة افتتاح الستارة ، وظهر خيال خلف الديكور ، واذا هذا الخيال هو يوسف العاني ذاته ، حتى صرخ الجمهور ، وتعالى (صفير) الفرح ، ودوى تصفيق ، وبينما هذا الحشد ينثر فرحه بالمناديل والورد والعواطف بكى يوسف ، لكنه انب نفسه بما يشبه التداعي : لماذا اذا تركت الجمهور ، كان علي ان لا افارقه خلال هذه السنوات ، هل انا ناكر للجميل ، ثم انحنى انحناءة الابن الوفي لابيه الجمهور ، وكان العناق العذب ..!

يوسف السينمائي

وما زال جمهوره في السينما يتذكر براعته الفائقة في فيلم

بالانضمام الى المعارضة ، هو (ايضا) صار معارضا لانظمة الخمسينات ، وكلما ابدى معارضة اعلى كان الجمهور الصق بمسرحه ، كان باروداً يحرق ويضيء ، يحترق الواقع في مسرحه وتضاء في اعماقه بذور الحياة ..!

٣ ـ وحينما اتسعت دائرة مسرحه ، بانضمام (جمهور المثقفين) ، اليه وتفاعله مع ظواهر المسرح العالمي صار (جمهورا عاماً) تجد فيه المثقف (استاذ الجامعة ..) الى جانب العامل البسيط الباحث عن خلاص ما .. والفتاة التي تدرس في الجامعة ، والاب الشيخ ، والام التي ترتدي عباءتها ، والشاب الذي يرقص الدسكو ، وبائع الخضار ، وفئة اخرى وجدت في مسرحه سمات المسرح العالمي ، وكل هؤلاء الجمهور ، الذين جاءوا الى مسرحه وشاهدوا فيه نماذجهم الدرامية الواضحة ، كانوا مدفوعين بنزعة التعبير عن رفضهم للتخلف ، فضلا عن (تمتعهم) الفني ، بيد ان ثمة جمهورا من الجمهور ، هو من غير جلود اولئك الجمهور الحقيقي ، كان يأتي الى مسرح يوسف ، يشاهد فيراقب ، بعضه يخرج مغتاظا ، لان ما شاهده كان معارضا لافكاره ، فيسكت مقتنعا بسكوته ، لان ماشاهده كان يخاطب فيه حسا انسانيا ، واخرون من هذا الجمهور ، يرى المسرح فيؤلب السلطات عليه ، بل يسعون الى التحريض على منع امثال هذا المسرح (الاستفزازي الشاذ !) ، وكان يوسف في كل ذلك

(سعيد افندي) الذي انزل فيه يوسف السينما العراقية من برج (التهريج) والسهولة الى ارض المواقف المبدئية .. حينما خاطب تاريخ هذه السينما : اننا نريد سينما تحول المتعة الفنية الى رأي ثابت ينقذ الانسان من ورطة البؤس، لا ان يسعى الممثل فيها الى (النجومية) الطائشة، كما كانت تفعل السينما العربية في بداية امرها ..!

وهذا يفسر لنا (خفوت) حماسته، وعدم مشاركته في الافلام التي ظهرت في اواخر الاربعينات وحتى منتصف الخمسينات ، ثم يوسف انطلق في المسرح (قويا وصعبا)، كان عليه ان ينطلق في السينما، ايضا، بخطوة اقوى واصعب، في ان لا يكون في كلا الحالين، مهرجا بحثا عن دور سهل، او مغامرا في الشهرة ..!

* * *

كانت ولادته، حتما، في سعيد افندي ..!

ففي سنة ١٩٥٦ اجتمع لفيف من اهل الخبرة في حقل السينما والتمثيل، وقيل في الاجتماع : يا يوسف ماذا تقول في قصة (شجار) للقاص ادمون صبري، لان تكون فيلما، فقال : اذا اعجبتني الشخصية الرئيسة، في هذه القصة، فاني باذل لها وللفيلم كامل جهدي، فقرأها وتمعن في



أثناء العمل في فيلم سعيد افندي ..العاني مع المخرج كامران حسني
سنة ١٩٥٦

فكرتها ، ورآها تتفق مع مزاجه ، ومزاجه من مزاج الجمهور ، وينعقد الاجتماع الثاني ، وكان حاضرا فيه هؤلاء الذين سيقوم الفيلم على اكتافهم وعقولهم ، وهم :

١ - المرحوم عبدالكريم هادي الحميد (المنتج) ..

٢ - كامران حسني (المخرج للفيلم والمساهم في الانتاج) وكان كامران قد عاد في هذه الحقبة من امريكا يحمل طموحا سينمائيا بعد دراسته السينما هناك فأصدر ، في بغداد مجلة (السينما) .. كانت منبرا في بث الروح السينمائية المعاصرة ..

٣ - ابراهيم جلال ..

٤ - جعفر السعدي ..

٥ - ويوسف العاني .. الذي كان عليه في هذا الفيلم ان يؤدي دور (الممثل الرئيس) وكاتب سيناريو .. والحوار فظفر بها جميعا ونجح ..!

كانت السلطة تراقب ، وهؤلاء يمثلون ، وكأنهم يؤدون واجبا مقدسا من واجبات الفنان ازاء وطنه ، وقف شرطي مدني ذات مرة يسأل :

● اسمك ..؟

- يوسف اسماعيل العاني .

● ماذا تعمل بهذه اللافتة ، هذه العصي لمن ، لمن ..؟؟

- هذا فن ، نعمل فن ، سينما (ويوسف عرف قصده ..)

وذهبوا ينسجون المشهد الاول ، لانهم يدركون خطورة ما

يفعلون ، خطورة انهم فنانون شعبيون ، وقال يوسف في غمرة فرح عارم ، يازملاء : تظن الرقابة اننا نعمل تظاهرة ، نعم نعمل تظاهرة ، الم يكن الفن الثوري تظاهرة ، هيا فلندخل كل الشعب في هذه التظاهرة ، وبينما هم يرسمون المشهد الثاني في هذا الفيلم في ساحة نائية من ساحات بغداد ، تقترب الى اسماعهم اصوات التظاهرات الشعبية : (فلتحيا مصر العروبة ، لبيك عبدالناصر ..) فتتوهج اعماق يـوسف واصحابه ، ويزدادون اقترابا من حقيقة فيلمهم ، فلا يحذفون شيئا منه ، ولا يطمسون معالمه ، لا بد ان يكون (ابن الشعب) بطلا في الفيلم ، صارخا ، مناديا باعلى صوته : ان هذا هو الفقر ، ان هذا هو مجتمعنا ، على حقيقته : فقير لكنه القوي ، منتظر ، وان غدا لناظره قريب ..!

وبفلوس معدودات صنع هؤلاء فيلما جيدا ، لانهم مارأوا في انتاجهم السينمائي لهذا الفيلم ، الا ايمانا بشعب ، وايمانا بان يكون قلب الفنان مملوءا بنداء الشعب ، يترجمونه الى نداء اعمق ، وهكذا ابتدأت قلوبهم تعاني اجزاء الفيلم منذ اواخر سنة ١٩٥٦ وطوال سنة ١٩٥٧ ، فما ان اكتملت نهايته واكتحلت به عيونهم ، حتى حبسته (الرقابة) اشهرا واياما ، وكان رأي وزارة الداخلية يقول في تقريره : (ربما يزيد ظهور فيلم سعيد افندي اشتعال الشارع) ، فثار الممثلون وضغطوا ، حتى افرج عنه في شباط ١٩٥٨ وهو موقف

جريء ، من مدير الداخلية العام آنذاك ممتاز العمري .. ولما عرض الفلم ظهر ما كان يتوقعه رقيب الداخلية : ضجة ، بل هياج في نفوس عشاق السينما الوطنية .

* * *

عمر يوسف ثمانية افلام ، لم يتنازل فيها عن دوره .. في فيلم سعيد افندي بلغ البطولة بروح المعاناة ..
وفي فيلم (ابو هيلة) ١٩٦٢ ، كان ثائرا في السيناريو ..
وفي فيلم (وداعا يالبنان) ١٩٦٦ ، كان متمردا بريئا ..
وفي فيلم (المنعطف وفلم (المسألة الكبرى) ١٩٨٣ و(اليوم السادس) ليوسف شاهين - ١٩٨٦ وكان في هذه الافلام ، يعيد قصة ولادته : ثائرا ، بصمت ، ناقما بعلانية ، كان يؤدي دورا ، بل يلبي رغبة فيه مكبوتة ، من ان السينما : منبر وعقل ، حالة تفجر الوعي والزمان ، فما ابعد هذا الحلم ، وما اجمل هذا الحلم ..!



سعيد أفندي .. وابنه الصغير

○ **هذه فلسفتي ..**

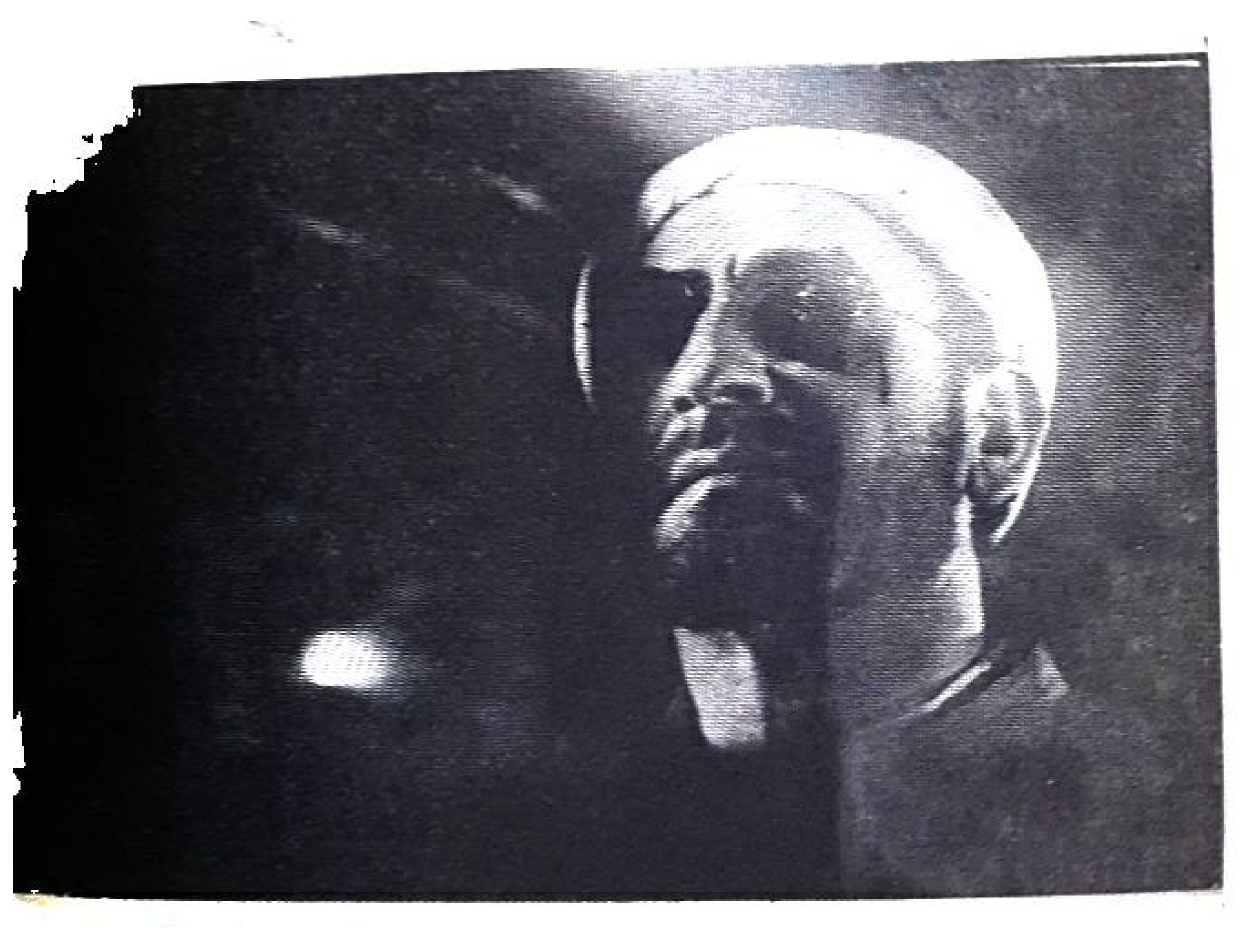
.. انا ابحث عن نفسي من خلال كل ما عرفت ، ومن خلال كل ما قدمت ، لا كتشف نفسي (انا الممثل يوسف العاني) ، وتراكم السنين كلها ، سنوات البداية ، سنوات التأثير ، سنوات التجربة ، هي التي اعطتني النمو ولا اقول الاكتمال ، واليوم استطيع ان اقول : انني الممثل يوسف العاني ، احمل فلسفتي وفهمي للتمثيل ، وادراكي بما امثل ، وفق المعرفة التي تكونت عندي ، ومن خلال كل فهم جديد يضاف الى خبرتي وابداعي ..

انني اليوم لا اقدم شخصية مسرحية دون ان تحمل فلسفتها معها ، فلسفتها كشخصية منفردة في المسرحية ، وفلسفتها عبر المسرحية كلها ، فالتمثيل فلسفة تعيد صياغة الحياة على المسرح ، وحين يسقط المسرح من مفاهيمه الفلسفية يسقط التمثيل في (مطب) السطحية المقيتة ، وتلك ادهى حالات اليأس الفني ..!

[من رسائل العاني الى المطبعي]

○ مرعبا رقيقا ..!

اتعرفونني ..
انا يوسف العاني ..
احلم وامثل ..
حلمي يقظة
وتمثيلي يقظة ..
اخترعت تمثيلي بحلمي ..
الحلم جميل يا اصدقائي ..
الحلم نهار ..
الحلم نداء ..
ها انذا مرعب ،
لكنني الرقيق ..
أنسج الحب ..
وسيفي لم ينكسر ..
انا السيف ..
والمهرة العاشقة ..
والدرب ريح ..
الى الاعالي يارفاق
ابي علمني الرمي بالرماح ..



دور الضرير في فيلم (المسالة الكبرى) ..!

الفصل الخامس

في النقد :
قلبه
أوسع من عقله .... !

التكريم والتقدير ..!

نقد سينما

لعن الكاميرا المهندمة المزورة التي تثير الرعب والرذيلة والشر في شاشة كبيرة ، كشاشة من شاشات هوليوود مثلاً ، او شاشة الفريد هيتشكوك مثلًا ، او شاشة تبتكر السحر في قتل حشود الناس ليعاد مضغهم باسنان بشرية ، كما كانت تفعل في الاربعينات شاشة طرزان ، وكلنا يتذكر طرزان ، وجه **الكاوبوي** المرعب الذي ما ان كنا نراه في ليل من ليالي السينما ، حتى تبقى ذكريات الوحش الكاسر في مخيلتنا على شكل افاع تطاردنا في النوم ، او على هيئة نمور تهرش اسنانها بقايا الحلم الجميل في نفوسنا ، بل ان يوسف يتذكر ، كيف ان طرزان (قبل ستين سنة) اوقعه في حزن الرعب ، وجعله في مابعد يتساءل لماذا الرعب ، ولماذا قدر علينا ان نرتعب في سينما ، كان عليها ان تعلمنا النور في ظلمة الحياة ، لكنه في هذا الرعب تعلم ايضاً نقيضه .. الخير والجمال ، ولانه موهوب ، اشاع الخير والجمال باسلوب كتابة النقد ، نقد الرعب في البداية ، وفي مابعد جاء ينقد الرعب وآثاره ونتائجه ، وفي ما بعد : عرى مؤسسات الرعب الجماعي .. !

كان صبياً ، وكان من السهولة ان يذهب بين يوم وآخر الى سينما الحمراء او (الوطني) فقد عرف اخوه الاكبر ان فيه رغبة الى الفن ، فمنحه الحرية في ما يريد مشاهدة وسائل

الفن ، ومنها : السينما كانت هوليود تغري الشباب والصبيان في متابعة شاشاتها بافلام صاخبة ، وباثارة الغرائز الدنيا ، وباثارة البطولة وغرائبها في النفوس ، هو كالصبيان كان يطمح ان يكون بطلًا في غابة ، يقتل غولًا بعصا ، ويعبر نهراً جارفاً بغمضة عين ، يقضي رأساً على بطل الوحوش ويتزوج بفتاة شقراء ، لكنه ادرك بعد مشاهدته عشرين فيلماً (في شهرين) ان هذه ليست بطولة ، وانما خيال من اخيلة الاقتصاد الرأسمالي ، حينما شرح له اخوه (عبد الغفور) : ان الاستعمار يصور الشر على انه (بطولة) ، وقبل ذلك كانت امه الزاهدة ، قارئة القرآن تمنع ذهابه الى اماكن تثير فيه الخوف والهلع ، (نعم ، كنت اشاهد الفيلم وانا ارتجف ، واغمض عيني حينما المح الاسد يهم بالهجوم على غزالة آمنة وادعة ليفترسها .. او النمر وهو ينطلق ليمزق انساناً كان يسير في الغابة ..) وكان يخفي هذا الهلع عن امه ، لكنه يفتضح امره امام امه حينما يأوي الى فراشه للنوم ، فتراه في آخر الليل او تسمعه في منتصف الليل يصرخ مستنجداً بها ، امي امي .. هذه افعى رقطاء التفت حول جسدي واوشكت ان تكسر عظامي كلها .. امي امي .. هذا حيوان يفغر فاه ليلتهمني كالسمكة .. وتأخذه امه الى (ابن مرشاك) قارىء الدعاء في محلتهم ، ليقرأ على رأسه التعاويذ وينشر عليه (الحرمل) حتى تزول عنه الوساوس ، او هذا الشيطان الذي دخل فيه

من السينما ومن باب لئيم ..

الوساوس او ربما هذه الاوهام التي باغتته في الطفولة كانت سبباً في ان يتجه يوسف الى الواقعية في السينما ، نقد الواقع الوهمي ، المصاغ بالتكنيك ، او المعدل بصيغ العصر ، والبحث عن بديله : بتشكيل الواقع مرة اخرى ، او بتغييره ، ثم ان اصطدامه بوهم السينما الرأسمالية في بداياته السينمائية كان قد مهد له ان يكون ناقداً سينمائياً ، يكتب من وحي الجماعة ، وينقل فيه احساس الواقع الصحيح ، وهو الامل في تغيير الشر .. !

عوامل واسباب

وظل اربعين سنة ، يكتب في نقد السينما ، بل هو الفنان (العراقي الوحيد) الذي لم ينقطع عن تواصله في هذا النقد ، قلب فيه موازين السينما ، في الخمسينات ، بدل اذواقاً ، واثر تاثيراً على استيراد الفيلم ، وجمع جمهوراً سينمائياً في عقله ، افادوا منه واستجابوا اليه ، حتى خلق في هذا الجمهور ، الحب للافلام ذوات المضامين الانسانية ، او من ذوات الكوميديا الاجتماعية الناقدة ، ولشهرته في هذا النقد ، ولريادته في هذا الحقل ، كرمته ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، بان جعلته رئيساً لقسم البرامج في الاذاعة والتلفزيون ، ولما صار اسمه (ظاهرة فنية) اسمها يوسف العاني ، - انيطت به

مسؤولية اول مدير عام لمصلحة السينما والمسرح في سنة ١٩٦٠ ، وهي اول دائرة تعنى بالمسرح والسينما ، كانت ثمرة نضالية ولدت في عقل يوسف وعقول قلة من رفاقه ، رواد الفن في العراق .. !

وثمة دوافع غير التي ذكرناها ، دفعته حتى الان ، الى ان يكتب في نقد السينما ، بل عوامل تاريخية ، في نشوء موهبة النقد فيه ، منها :

١ ـ تولدت عنده قناعة ، وهو في مرحلة المتوسطة ، انه اكثر اترابه ، في المحلة او المدرسة ، اقتراباً من فهم الافلام السينمائية ، الجيد منها والرديء ، النافع منها والمضر ، ولرسوخ قناعته هذه ، كان يحمل في ذهابه الى السينما ، مفكرة صغيرة ، يسجل فيها في صفحة ، عنوان الفيلم ومخرجه واسم المنتج ، وفي صفحة اخرى : باسطر ثلاثة يسجل انطباعه عن الفيلم ، جيد ، رديء ، وشيئاً عن اهدافه ، حتى اقتنع اترابه ، بان يوسف مجد في سينمائيته ، ومثابر ، وله مهارة في شرح قصص الافلام باسطر قليلة وبمعان تدل على حذق فنان موهوب ، حتى صاروا يقتنعون بشروحه ، فتزعمهم في المناقشة في مقهى الطرف او ساحة المدرسة ، وكان بعد كل فيلم ، يأتي الى بيته حالا ، فينقل تسجيل

انطباعه ، من المفكرة الصغيرة الى دفتر كبير (سجل) لكن ليس باسطر ثلاثة ، وانما بشرح واف ، يضع فيه تساؤله الحقيقي مقترناً بجوابه الحقيقي عن الفيلم الذي رآه في ذات الزمان المعين ، قد يكون الشرح صفحة او صفحتين ، ويدفعه طموحه الى ان يرسل شرحه الى الصحف ، لكن الصحف في نهاية الاربعينات لم تعرف بعد ، من هو يوسف اسماعيل ، حتى تغامر بنشر (نقداته) ، فتضعها في (المهملات) اسفة او غير اسفة ، ولم يصبه القنوط ، فهو آنذاك يشعر في اعماقه بانه (بهلوان) لابد ان ينتصر في يوم ما ، لابد ان يحقق حلم بطولته امام رفاقه ، وان يشبع فيه غريزة مجهولة .. ان لايسقط من حياته ، ١٥ سنة من جهد المشاهدة للسينما والتلذذ بعوالمها واحلامها ونجومها ومسارحها : (كنت اشاهد الافلام الاميركية والمصرية والهندية وكنت اتلمس رد الفعل في نفسي مباشرة ، والاثر الذي تتركه افلام العصابات والكاوبوي وافلام البطولات الخارقة الرعناء .. ومدى الاستجابة للافلام الخيرة .. ومدى رفضي لافلام الميوعة والخلاعة والتوجيه المضلل وماتولده عندي من احاسيس ومشاعر ، وماتولده المآسي الغارقة بالدموع والآهات وصرخات اساطين التراجيديا في الفيلم المصري .. وغيره .. كل تلك الافلام كانت تترك صداها في كثير من تصرفاتي الشخصية وبمختلف مراحل عمري ..) حتى اثر هذا على وعيه ، فحدد

موقفه من كل فيلم يشاهده ..!

٢ ـ كانت ترد الى العراق في بحر الاربعينات مجلات فنية ، من اقطار عربية ولاسيما من القطر المصري ، ومنها : مجلة (السينما) .. التي اصدرها كامل الحفناوي الذي اشاع فيها النقد الاكاديمي للسينما ، وهو نفسه الحفناوي الذي كتب في النقد السينمائي الاكاديمي ، متناولًا الافلام المهمة .. مبتدئاً نقده بقصة الفيلم ، والاخراج والتمثيل والديكور .. الخ .. فاستطاع ان يجمع حول نقده ومجلته العديد من الهواة والمحترفين ، ويثير فيهم الجدل والمتابعة ، ويوسف كان من هؤلاء ، بل اشدهم (هوسا) وافتتانا بمجلته ، فعمد على اقتطاع مايظهر فيها من نقود ، ليجمعها في (اضبارة) كبيرة ، يقرأ ويعيد مايقرأ ، مقلدا مناهجها في النقد والتبويب والعرض والاستدلال ، ولو رجعنا الى اول (مقالة نقدية) كتبها يوسف في سنة ١٩٤٦ عن فيلم (ابن الشرق) لوجدنا هذا التأثير القوي من مجلة (السينما) عليه وعلى افكاره الفنية ، ثم لوجدنا ان (محاكاته) للنقد المصري كانت ضرورة تاريخية له في مرحلة نقده الاولى ، فالعراق لم يشهد نقدا سينمائياً او تراكماً فيه قبل وصول هذه المجلات الى مكتباته ، فكان لابد ليوسف ولاضرابه (من المتطلعين الى سينما عصرية) من ان (يقلدوا) او يشكلوا انفسهم في كتابات الاخرين ، **تعويضاً** لهم ، عن حلقة مفقودة ، او ملء فراغ من

فراغات الفن .. !
٣ـ والموهوبون هم وحدهم الذين يتجاوزون (التقليد) والوقوع في اسر افكار الاخرين ، وهكذا رأينا يوسف منذ نهاية الاربعينات ، ينسلخ من الجلود الملونة ويلبس جلده الحقيقي ، فيكتب وحياً من اعصابه ووجدانه ، نقداً سينمائياً يدغدغ فيه حسا عراقياً وعاطفة تراثية ، ويبدأ يكاتب صحفاً بارزة امثال : الاهالي وصوت الاحرار والاخبار والدفاع ، في ماوجد في نقده القراء : نكهة جديدة هي غير النكهة التي تذوقوها في امهات المجلات العربية الفنية ، وبرنامجا في النقد ، لانه في هذا البرنامج قال للقراء المشاهدين للسينما : لاتدخلوا هذا الفيلم ، لان فيه دساً من الدسائس ، وادخلو هذا الفيلم ، لان فيه مخرجاً او ممثلًا يخاطب مشاعركم الانسانية ، كان عنيفاً مع رأسمالية الفيلم ، ورقيقاً منحازاً مع ابن الشعب ، كان صلة حالمة .. !
٤ ـ وفي بداية الخمسينات كان عدنان رؤوف يقدم من اذاعة بغداد برنامجاً في نقد السينما ، محللا ، شارحاً ناقداً تلك الافلام الاجنبية التي اشتهرت بابطالها واهميتها الفنية ، فكان له جمهور ومتابعون ، وبينهم يوسف ، افاد من عدنان ، وعيا بالمفاهيم السينمائية العالمية ، وارشده عدنان الى الاتجاهات الحديثة وطرق النقد الحديثة ، فقامت بين الاثنين ، صداقة نقدية ، كان يوسف هو الرابح فيها ، لان

عدنان شجعه على قراءة التيارات الجديدة في السينما وزوده بنصوص المجلات الجديدة .. (وشعرت عند ذلك باهمية النقد في نفوس القراء ومدى تعلقهم واهتمامهم به ، ذلك الاهتمام الذي كان يدفعهم الى تتبع كل ماكتب ومناقشة بعضه مناقشة واعية كانت ذات اثر كبير عليَّ في الالتفات الى جوانب كنت غافلًا عنها ، او الاهتمام بجوانب اخرى كنت امر بها سريعاً دون كبير عناية ..) فكثر جمهوره ورأى هذا الجمهور ان يوسف صار مقياساً تقاس بنقده : جودة الفيلم او رداءته .. !

٥ ـ في هذه الاثناء انعقدت ندوة مفتوحة لمناقشة الافكار الجديدة التي اطلت على العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان قوام هذه الندوة بعض الخريجين الجدد الذين تخرجوا في جامعات اوربا ، ومن بينهم : الدكتور صلاح خالص ووليد صفوة واسماعيل الشيخلي (الفنان المعروف) وغيرهم ، فانضم اليهم يوسف ، مستمعاً الى مايقوله صلاح ووليد صفوة في الصناعة السينمائية الاوربية اياما واياما ، وكان يوسف يعرض عليهم نقده قبل نشره ، فتجري في ما بينهم صراحة الاراء وتمازج الافكار ويشجعونه على النشر ، لانهم وجدوا فيه اصراراً على النقد وحرفة النقد وهواية النقد ، كما وجدوا فيه مذهباً مشرقاً في الانسان ، هو ذاك المذهب الذي يؤمنون به : (ومن هنا كنت ابحث عن الفيلم الجيد المليء باللمحات الانسانية والفكرية الخيرة لاقدمه الى القراء مؤكداً لهم ان

السيل العرم الذي اغرق السوق وملأ دور السينما ووضع على ابصار الناس غشاوة ، ينحسر امام الاشراقة الطيبة والمحتوى الخير والعمل الفني المتقن والاخلاص الواعي ..) بينما كان المشاهد في اغلب الاحيان لايرى الا الافلام الباحثة عن الصراخ الجنسي او البطولات البراقة .. !

٦ ـ في بداية الخمسينات صار له حقل خاص في نقد السينما في جريدة الاخبار ، وكانت تصله بواسطة هذه الجريدة ، مئات الرسائل ، كل اسبوع ، تؤيده على ارائه ، او توجه له نقداً من النقد ، فأفاد من هذه الرسائل ، وقوفه وتأمله في منهجه النقدي ، بل ان بعض هذه الرسائل اثر في مزاجه وعواطفه فاندفع بحب يصقل ويعيد في ماقال وفي ما اعطى من اراء ، وكان يشير لذلك في حقول عديدة ، كان شيئاً فشيئاً يزداد صلة بالصحافة ، لان الصحافة عرفته بالالوف ونقلت مفاهيمه الى الالوف ، فادرك اهمية ان يكون ناقدا ومحرراً في الصحافة ، واهمية ان يكون في الصحافة امينا ورقيباً اميناً ومع الجمهور قبل كل شيء ، حتى اذا اجتمع مع كامران حسني في منتصف الخمسينات ومع فنانين اخرين ، وناقشوا اهمية ان يكون الفن للجميع ، قرروا اصدار مجلة (السينما) وكانت فرصة اخرى ليوسف ليطل على قراء جدد ويوسع من دائرة شهرته ويزداد يقينا بانه ناقد ، وتوطد هذا اليقين عندما دعي لتحرير مجلة (الثقافة الجديدة) وجريدة اليقظة والوادي وغيرها من

صحف الخمسينات : (وكنت المس تأثيراً لنقدي عل
المشاهدين واصحاب دور السينما معاً .. المشاهدون يتقبلو
ما اكتب برغبة وحسن ظن ، واصحاب دور السينما يقرأون
ما اكتب بغضب تارة ويفرح تارة اخرى .. فقد لمسوا دور النقد
في الناس ومدى تغلغله في نفوسهم ، وتأثير ذلك حتى على
ايراداتهم ..) وكان يوسف كلما وجد اقبالا كبيراً على آرائه
عمق تجربته مع الجمهور .. !

الجدية والطرافة

وتجربته في النقد جدية ، لانه كان يخاطب جمهوراً
ويعرف ماذا يريد هذا الجمهور ، فلا يكتب للفن من اجل الفن
ولا لاساطينه ولالمستوردي الافلام ، ولهذا ادخل السياسة في
نقده ، تلميحاً الى مضمون ، وتعريفاً بهوية المضمون
وجمهور الخمسينات كان يفسر الفن بالسياسة ، ولاسيما
السياسة المباشرة التي تلهب المشاعر وتذكي الاعماق
فتفجرها على حالها ، ويوسف يفجرها بايقاعه الخاص
بنبرته المعروفة بالغمز واللمز او بالتصريح والتقريع ، وهكذا
كانت موضوعاته تدور في تعرية الاستعمار ..

كان بين حين وحين يوجه نقداً مريراً الى مؤسسة هوليوود
ويشبهها بدار الازياء الصارخة او بمعرض الموديلات ، فلاهم
لها الا الربح ، ولاغاية لها في اغلب افلامها الا (الجاذبية

الجنسية) ... وهكذا ولدت (جيلدا) التي مثلتها ريتا هيوارث بثوب مفتوح الصدر وقفازين طويلين .. كان يريد ان يوصل الى الجمهور ، ان المنتجين (وهذه هي غايته) في هوليوود يعنون عناية خاصة بناحيتين . الاولى : الناحية الشكلية للفيلم من تصوير خلاب وعرض مناظر جذابة ، والثانية : استجداء عاطفة الجمهور باية وسيلة كانت سواء بالتأثير على غرائزه او بالسيطرة على اعصابه عن طريق خلق حوادث مفتعلة تثير المتفرج وترهقه في آن واحد .. وهكذا جاء نقده الى افلامها ، حاسماً شديداً ، كافلام (نياغارا) و(موجامبو) و(الشعلة والجسد) و(صراع في الغابة) و(الفارسة الحسناء) وغيرها من الافلام التي كان لها دوي في الخمسينات ، لكنه الدوي العابث الذي يعبد الدولار .. !

● ● ●

وكان يتابع حياة المخرجين في هوليوود ، من مصادر شتى ، فيكتب عنهم ويكشف من خلال سيرهم ، اصالتهم او هشاشتهم ، ويقدمهم الى الجمهور كما هم وكما هي فلسفاتهم ، في الفن وفي الحياة والسياسة ، كتب عن (سيسيل دي ميل) الذي عرض المآسي في الوجه الاخر من السيرك وقصة السيرك برجاله ونسائه ، وكتب عن الفريد هيتشكوك (ملك الافلام البوليسية) الذي سف في موضوعاته واجتر المكرر ، وكتب عن (ويليام وايلر) الذي قدم موضوعات

سينمائية كان اكثرها يقف مع الانسان الذي يعشق السلا
والحرية ، واكثر المخرجين التصاقا بيوسف كان شارلي
شابلن ، الذي خصه يوسف بكلمات كثيرة ، وباستشهادات
وكان يحرض القراء على متابعته والتركيز على موضوعاته
واسماه : العبقري ، لتعدد مواهبه ، ومعاناته في الحياة
ولانه وقف من هوليوود موقفا جريئاً كانت نتيجته : الطرد
فلما طرد ، احتضنه العالم ، لسمو فكره ووقوفه مع الانسانية
المعذبة جمعاء ..

في آفاق المسرح

وكان يكتب نقداً عن شؤون المسرح ايضاً ، فاضافة
تسجيلاته وملاحظاته التي يدونها عن المسرح في مفكرته منذ
حضر وشاهد اول مسرحية على مسرح مدرسة الكرخ الابتدائية
في سنة ١٩٣٨ ، كان يكتب ويبعثه الى النشر منذ سنة
١٩٤٩ ، فاول (تحليل نقدي) في هذه السنة كان عن
مسرحية (رصاصة في القلب) التي قدمها لفيف من طلبة
الكلية الطبية ، من بينهم الدكتور رافد اديب وعلاء
الخالدي وسميرة بابان ، وحينما بدأ يقدم اعماله المسرحية في
معهد الفنون الجميلة وفي فرقة (المسرح الحديث) في بداية
الخمسينات صار اكثر جدلا على خشبة المسرح ، فالمنا
تنوعت امامه وكذلك مهامه ، وعليه ازاء هذا التطور الذي طر

ى حياته الفنية ، ان يوضح اهدافه ومراميه في المسرح ،
ﻻسيما وان المرحلة استقبلت نشاطا مسرحيا متعدد
جوانب ، غزيراً في عطائه ، من مصر ، او العراق ، كان
يخص اهدافه ومراميه في (تحليلات قصيرة) ويرسلها الى
جريدة البلاد ، فتنتشر تباعا وتحدث الصدى ، وتحدث الترابط
. يوسف وآماله في التطور ، فيزداد عنفا وتصلبا في اماله ،
ويظهر هذا جليا في نقده لمسرحيات يوسف وهبي وافكاره في
سنة ١٩٥٦ ، وكان نقداً قوياً ، ملتهباً .. !

● ● ●

واظب على ان يكتب ويرسم في كتابته منهجا للمسرح ،
ضع في هذا المنهج ، تصرفاته العقلية ومعتقداته في مايريد
، مايفكر ، في مسرح .. مفصل على قامته ، على رؤاه ، اذ انه
كتاباته تبدو شخصيته قوية ، حالا تعرفه ، حالا تدرك انه
يوسف ، ماذا يريد ، ويوسف هنا يتميز عن كثير من نقاد
المسرح ، اولئك يختبئون وراء نصوصهم ، بل تظهر
شخصياتهم ظلالا من الظلال ، وطالما تبقى نصوصهم
النقدية بلا اشخاص ، اما هو فمهيمن على نصه .. يمد يديه
ما اراد ولسانه ان اشتهى ، وعنفه وسخطه ولباقته في
الادانة ، ان دعته الى ذلك ضرورة من ضرورات صراع الذات مع
الآخرين ، وشيء من نفسه في هذا السبب ، فهو ينطوي على
عنف اظنه بايلوجيا ، وعلى (تزمت) جاء اليه من مكونات

بيئته ، وعلى دافع (الابوة) اذ انه يتصرف في المسرح على انه مؤسس ، اب .. تفرعت من شجرته غصون الابناء ، وماعلى الابناء (ان كانوا بررة) الا السير على نهج ابيهم ، وثمة ميزة في (المقابلات والتحقيقات) التي تجريها الصحافة مع يوسف ، هي انه يفرض نفسه بذكاء اذكى من ذكاء الصحفي وبمناورة احيانا ، في اجوبته اوفي نتائج (المقابلة) ، وهو لايريد ان يغيِّب الاخرين عمدا متعمدا ، او جبرا متجبرا ، وانما هو يوسف ، يسعى الى ان يكون (دائماً) اكبر في نصوصه وموضوعاته ومقابلاته واحاديثه ، وان تظل شخصيته هي الطاغية على افكاره ، وليست هذه الميزة فيه (نرجسية) تمتص فيه ضعفاً او شيئاً اخر ، وانما هي كعادة الرواد في ان يظهروا (دائماً ابدا) منذ كان تاريخ للاداب والفنون ، نجوما من نجوم العصر .. !

● ● ●

اما اسلوبه في النقد ، فيسميه البعض (الاسلوب الحيوي المؤنس) ، باعتقادهم . ان يوسف يجمع السرد القصصي الى اسلوب البحث الجاد ، ويسميه التونسيون : (الاسلوب المباشر الطيع) الذي يدخل الى القلب مباشرة فتستسلم له المشاعر ويسميه اخرون : (الاسلوب الهادف) بمعنى ان يوسف بدأ في مسرحه (جادا) ومازال ، ونقاد اخرون نعتوه نعوتا واوصافا ، ترفعه ولاتؤخره ، وتقر : بعفويته وطلاوته ،

اما انا فأسميه : (اسلوب التعريف والتحليل) .. لماذا .. ؟
هو منذ البداية كان يخاطب الاكثرية في اعماله ، والاكثرية تريد اسلوبا سهلا ، حتى تخاطب فيه لواعجها واسرارها ، فجاء اليها بشرح هو (تعريف) بالشيء ، وبفكرة هي (تعريف) بالهدف ، وبدراسة هي لاتخرج عن اطار (التفهيم السريع) ، كان حتى في ابحاثه التي نشرها متسلسلة تحت اطار (ملامح من تاريخ المسرح العراقي) وهي (ابحاث) اربت على العشرين ، ينحو فيها منحى (التعريف) لانه فضل عرض (المعلومة) على اية قيمة اخرى من قيم التكنيك اللغوي او التكنيك البلاغي ، المعلومة اولا ثم الاسلوب ، فلا يهمه ان ينمق او تتهندم افكاره ، ولايهمه ، بعد ذلك ، ان ينقده ناقد لغوي او ناقد اسلوبي ، المهم لديه ان يبشربمعلوماته ، ويدخل النص اذا اراد نقده ، بهذه المعلومات ، فيحيله الى فهم وتفهيم ، محللا بامانة ، هي امانة التعريف بالحقائق الواردة في النصوص ، حتى يفتح المجال واسعا امام (القارىء المشاهد) لرؤية اعمق ، لتذوق ارسخ ، ولفهم ارحب مدى ، هو كاؤلئك السياسيين ، يرون الاسلوب (برقية) تبرق في زمن قصير وتقرأ في زمن اقصر ، وعلى قطاعات اوسع عدداً ، وتكتب بلغة يفهمها الرأي العام على انها لغة التخاطب ، لكن آخرين يرون ان اسلوب البرقية ممل اذا استعمل في الادب ، ومنه : النقد ، ويعتقدون ان

الرأي المهم او المعلومة المهمة مالم تنقل باسلوب مهم (فني) فانها تصبح بطيئة التأثير، وكلما كان الاسلوب عاليا جميلا، شد الافئدة والعقول الى معلوماته ..!

ملامح خاصة

وايا كان النقد على اسلوبه ولغته، وايا كان خلافنا مع بعض معتقداته في المسرح، فان عمر **الخمسين**، لمسرحه وتمثيله واخراجه وتأليفه وتعليقاته، كاد او اقترب الى بناء ملامح (خاصة) لمدرسة يوسف العاني المسرحية، مدرسة بتاريخ ومدرسة بتلاميذ، ولهذه المدرسة قيم ومبادىء هي حصيلة ثقافته ومعرفته وتجربته الطويلة، ولكن ذلك لايعني انها مدرسة محاطة بسياج، مغروسة في قوانين ثابتة، لايخرج منها، ولايضيف الرياح الجديدة، لا .. انها ثابتة في حدود ثبات مبادئها، ومتطورة في حدود قوانين الجدل التي تطرأ على تطوره المسرحي .. (ولهذا عدوه متحيزاً للجيل الجديد)، وكل قيم مدرسته ومبادئها تقوم على جوهر واحد، هو: (الانسان) وقوانينه الاساسية الاولى: الوطن والحرية والشرف .. !

ومنذ بدأ يخط اولى حروفه في مسرح صغير، كان الانسان فيه، كينونة، ثم صفة، ثم موصوفاً، ثم: الهاما، هنا اكتشف ان الانسان كيان مقدس، حارث الارض، ولما ذاق

يوسف المعاناة بالتشرد والغربة في سنة ١٩٥٧ في المانيا ارتفع مفهومه في الانسان .. اصبح : امل البشرية . عليه تتوقف سعادتها ، بل مستقبلها ، اما الوطن فهو جوهر (قضيته) ، بل يكاد يتساوى (او يتكافأ) مع انسان (مدرسته) المسرحية الذي عاش تاريخه ، ماضيه وحاضره ، وحينما يضيق يوسف بمتاعب ذاته يهرع الى الوطن ، يستنجده فيعطيه : الامل ، فتبتسم به شفتاه ، ثم يمنحه : الثقة فيعززها في اعمق اعماق نفسه ، ثم يعطيه : الحرية ، فيسوح بها في فضاء (لامحدود) ، وثقته بالحرية ، علمته ان لايقف في الظل ، وان لايختنق في وجه الشمس ، حريته هي كيان شامخ في «مدرسته» حين يتعلم ويعلم الاخرين ، وحين يقول كلمته ويجسد حقيقته وحقيقة الاخرين ، اينما كان وحيثما قصد .. !

● ● ●

واجزم ، ان في مدرسته تخرج تلاميذ كثيرون ، جيل تخرج تحت خيمة فرقته (المسرح الحديث) وجيل تخرج في (جمعية جبر الخواطر) وجيل تتلمذ له ، في كتاباته ، وسواء اولئك الذين وقفوا معه ، على خشبة المسرح يتأملون تجربته ويسبرون اغوارها ، او اولئك الذين نهجوا ، في جذوره ، فانهم (هؤلاء كلهم) كانوا يتعلمون في (مدرسته) صيغ التربية المسرحية ، والفهم الحيوي لفن المسرح (سلوكاً وعملاً وفناً

وخلقاً فنياً) ، وهو ـ ايضاً ـ كان يتشرب وحيه وديمومته ، من رعيل الامس او رعيل الحاضر ، يفيد من مثابرة المثابرين وهم الشباب الذين اخذوا الدرس عليه ، بلا سبورة اوصف ، ويفيد من جيله ، في اخلاصهم ، وعزمهم ، واصرارهم على المضي باسلحة متواضعة ، كانوا كلهم مشدودين الى خشبة مقدسة .. !

الذين كتبوا

اما النقاد الذين كتبوا في تقويم فنه فهم فئات : فئة حاريته ، لان يوسف يجري في مسرحه مجرى العامية ، ومن بينهم : الكاتب المصري احسان عبد القدوس ، حيث كتب في مجلة (روز اليوسف) : (لقد قرأت المسرحيات من اولها الى آخرها ، فلم افهم منها كلمة واحدة ..) ويعني بها المسرحيات التي اصدرها يوسف بعنوان (رأس الشليلة) في اواسط الخمسينات (وهي طبعاً باللهجة العراقية) ، ولم يتأثر يوسف بنقد عبد القدوس سوى انه ارسل تعقيباً على نقده ، يقول فيه : (يااستاذ قدوس ، هناك في الصفحة الثانية من كتابي كلمات بالفصحى منها كلمة «الجامعة العربية» فهل يتعذر عليك فهمها كذلك ....» لكن القدوس لم ينشر التعقيب ، وفي مصر ايضاً كتبوا عن يوسف المسرح والانسان ، وهم كثيرون لامعون امثال : احمد حمروش وصلاح حافظ ،

وكانوا انصفوه انصافاً ، وثمة فئة ناصرت يوسف منذ بدايته ، لاسباب سياسية وبحسب المراحل الزمنية او السياسية التي مر بها العراق الحديث ، وكان يتزعم مناصرته في بداية الخمسينات الدكتور صلاح خالص ، ثم تولى النقاد في مناصرته ، منهم : الدكتور كمال نادر والدكتور جميل نصيف والدكتورة سلوى زكو ويوسف عبد المسيح ثروة والدكتورة سعاد خضر .. واغزر الدراسات عن يوسف كانت دراسة الناقد ياسين النصير ، اذ هي وثيقة سياسية نفسية اجتماعية وقد نشرها في الاونة الاخيرة تحت عنوان (ابن البلد) .



○ الحزم ..

ولما كان قلبه اوسع من عقله ، رد على اسئلتي مبتهجاً ..

س ـ اي الشعراء تحب ..؟

ج ـ الكبار والمبدعون .

س ـ هـل سمعت بشاعـر (مشهور) يحب الشهـرة المصطنعة .. ؟

ج ـ نعم سمعت ..

س ـ ومن هو .. ؟

ج ـ (..........)

س ـ عرف الفنان الشرير ....؟

ج ـ مجرم في حق الفن ..

س ـ هل من الممكن ان يصبح الفنان الشرير سياسياً .. ؟

ج ـ فيصير مجرما في حق الانسانية . هناك نماذج كثيرة ..

س ـ قال ناقد بانك فشلت في تحقيق رسالتك .. ؟

ج ـ لايوجد مثل هذا الناقد ، فانا لم افشل ، بل لم اكمل رسالتي بعد .

س ـ برهان واحد على انك كبيرهم .. ؟

ج ـ انا صغيرهم الكبير ..

س ـ هل ظلموك ..؟

ج ـ في بعض الحالات ..

س ـ يقال انك ظلمت آخرين .. ؟

ج ـ ابدا ، قدم لي واحدا ظلمته ، حتى احيل نفسي الى القضاء ..

س ـ ويطفو فيك الغرور .. ؟

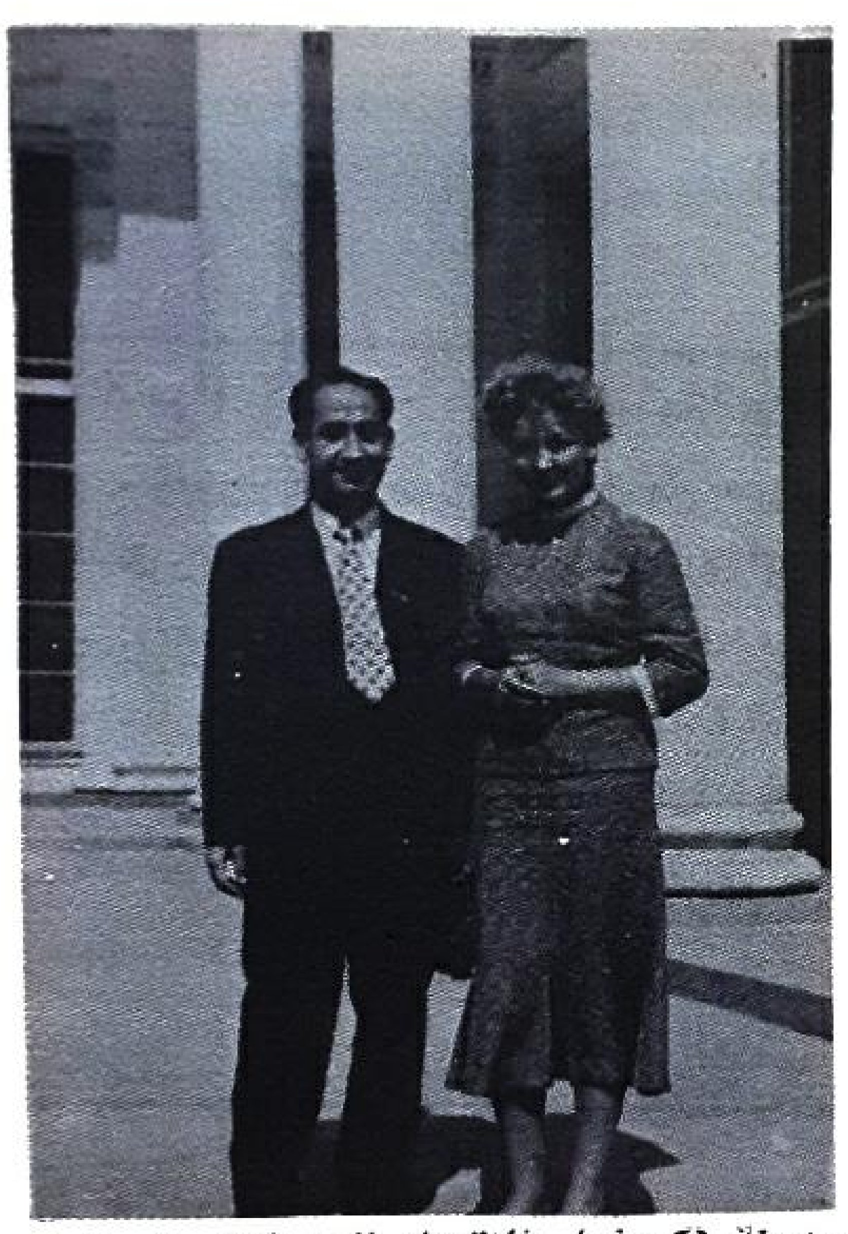
ج ـ اخنقه واطرده من على السطح ..

س ـ وتحزن حزن زعماء قبائل ...؟

ج ـ حزن ابناء القبيلة الطيبين ..

■ اما الحياة كفلسفة فقد تعلمتها من اكثر من مصدر ومرجع .. فلسفة الناس الذين تربيت معهم والذين علموني كيف اشق طريقي في الحياة ، النظرة الى الناس ، احترام الاخرين ، عدم الخضوع لمن يريد اخضاعك قسراً ، التراجع عن الخطأ فضيلة .. التوسل بالمناقشة والبحث والمنطق للوصول الى ماتريد .. عدم الاستهانة باي رأي مهما كان بسيطاً .. كل ماتعلمته صار فلسفة في مسرحي .. !

(من رسائل العاني الى المطبعي)



في مدينة (كييف) بالاتحاد السوفيتي السابق سنة ١٩٥٧ .. العاني مع الممثلة السوفيتية : ايرينا سباسكوفا !

الفصل السادس

سيرة مسرحية
لاحداث عراقية ..!



عام ١٩٦٢ .. مع الممثل السوفيتي (آلكسي باتالوف) ..

بته
عاش يوسف في جيل يشتري الكتب بمعاناة ، ويقرأ
عاناة ويعاني اذا قرأ شيئاً في الادب او السياسة ، فقر
ور ،.هذان شيئان كانا يدفعانه الى الكتاب ومن عرق يده
جهه يقتطع دراهم معدودات من (**يوميته**) ليذهب بها الى
ي ذبيان **المولة** ليقتني به مجلة (الرسالة) المصرية
تاباً من كتب توفيق الحكيم او سلامة موسى كان يقرأ
ت في المتوسطة ، تحول الصمت الى ضجيج في الثانوية
ا فتحت عليه قراءاته عالما مملوءاً بالتفاؤل .
ان يحلم ان يجلس على كرسي وامامه منضدة جميلة
ويقرأ ويؤلف ، فقد حصل على معلومات كثيرة ، من
ل كثيرة ، من الرواية والثقافة المصريتين ، وقبل ذاك كان
من كتب كامل الكيلاني في مسلسل السندباد ، فلماذا
ف كالمؤلفين ، لا .. الوقت لم يحن بعد يايوسف ، انه الان
ع نصح معلمه او نصح اخيه الكبير عبد الغفور : اقرأ ،
لماذا لاأؤلف ، انا اكتب انشاء اكثر رفعة من طلبة
وية ، اقرأ اكثرهم وافسر الغامض اذا غمض عندهم ، لا ..
سف ، الكتابة خطورة يكتبها ناس مشهورون ، وسياتي
تدرك فيه ما الكتابة وقبل ان ينتقل الى كلية الحقوق
ت رفوفه الخشبية قد احتوت شعر الرصافي والبحتري ونثر
حسين وزكي مبارك ، وقصصا في التصوف الاسلامي

ونصوصاً مسرحية ودفتراً (على وجهة الاول صورة الفقيد عبد المحسن السعدون) يتضمن خواطر نثرية وشعراً من شعر التلاميذ على شيء من فورة النفس والقلب لاتستقيم على وزن او بحر من البحور .. !

● ● ●

وفي كلية الحقوق اضاف الى كتبه كتب القانون ، وهنا انقدحت في قلبه شرارة الحقوق الانسانية صار يرجع الى ذاكرته الاولى انا لم اقرأ سلامة موسى عبثاً وصار عليه ان يمزج بين ذاكرته الاولى القانونية ، القراءة وعي ثم تعلم من صديق له ان الانسان اذا وعى ابتلى بالايمان ، والمؤمنون قادة لانهم اكثر خبرة من غيرهم في تغيير الانسان ، ولانه واقعي ولانه متعلم ولانه ابن وراثة وطنية تحمل فكرة اعباء الوعي ، صار ينظر الى الوعي نظرة جدية جادة متحدية وهنا راح يقرأ الوعي الدستوري يقرأ دساتير الدول ويقارنها بدستورنا ، اين يقرأ .. يقرأ في (الخان) بين الحمالين وعمال (عبّارات الشط) فيجد تناقضاً صارخاً بين مايقرأ وبين واقع الناس في سوق حمادة ، هنا في الدستور الفاظ تدعو الى التساوي بين الناس (كاسنان المشط) بينما ينظر في بغداد فيرى بدل التساوي انقساماً ، قصور واكواخ ترهل في بطون وضمور في بطون اخرى ، هذا الدستور كذب في كذب يقول هذا في قاعة الدرس ، فيهرب منه ابن احد الاغوات بل يهرب منه خمسة من اصدقائه في

الطفولة كان اباؤهم يملكون معامل للاقمشة والسكائر ولانه تحمل اعباء الوعي كان يندفع الى قراءة الوعي من مصادر اكثر شهرة في الوعي فاقتنى كراسات فيها كتابات لفولتير وجان جاك روسو وغيرهما من قادة الوعي الانساني يقرأ من هنا فقرة ومن هنا فقرة اخرى ويركبها على بقايا من شعر الرصافي وعبود الكرخي كان قد اختزنها في ذاكرته من ايام الثانوية المركزية فتتفجر كلها مرة واحدة في مسرحياته من ذوات الفصل الواحد ..

● ● ●

وسافر يوسف الى اوربا في سنة ١٩٥٧ ولم يحمل معه الا نصوصه المسرحية، بينما اتت على كتبه ومكتبته الاستعارات، فشتتها وضاعت وانتقلت من بيت الى بيت وكتبوا له رسالة (.. اما كتبك فهي عند (س) و(ج) و(ص) .. الخ ..) فلم يتأثر لانه اقسم في السنة الاولى من كلية الحقوق : (ان الوعي عبء) فلتذهب الكتب الى الجحيم مادام هو مؤمن بالقضية التي تشرد من اجلها، وهذه احدى الازمات التي تعانيها مكتبته . الان فهي خلو من كتب ترتبط بجذور قراءاته الاولى، اذ ماقيمة مكتبة ان لم تزينها اغلفة اولى لكتب اولى تشرح لصاحبها عواطفه الاولى في الوعي والقراءة والمعاناة وتذكره بتدرج وعيه وفهمه للحياة وتؤرخ له لمساته المبكرة في حياة عقله ووجدانه ومدى اهميته بين

اصدقائه واترابه ، ومدى اهميته في الحياة السياسية لكنه تدارك هذا (الخلل) بجمعه مجموعة مهمة من تسجيلات مسرحه وتمثيلياته التي كتبها او مثلها أو أخرجها في اواسط الخمسينات ونهاياتها ، وهي ثروة معنوية له ، جزء من تاريخه وماضيه تقدمه الى الاجيال في المستقبل : جريئاً لساناً ، شريفاً عقلا ، نزيها في مواقفه ، وبين هذه التسجيلات تطالعك كتبه في التراث ، الشعر والادب والمسرح ، وبعضها بالانكليزية وبعضها بالالمانية وهذه تذكره بمغامراته السياسية ، عندما هرب من بغداد الى المانيا وصفا له الجو هناك والتقى بزوجة برشت هيلينا التي قالت له : (تعلم الالمانية تعش مسرحنا) فتعلم بعض مقاطعها .. وفي احد رفوف مكتبته (مسودات) كتبه (التي تنتظر الطبع وهي كثيرة) .. وقريبة منها تلك الاوسمة والجوائز التي حصل عليها يوسف لشهرته وهي مصنوعة بمختلف المعادن ، وهي وحدها وثائق من الممكن الرجوع اليها لكتابة سيرة يوسف المسرحية والفنية ، بل هو المبدع العراقي الاول الذي زين صدره بكثرة الاوسمة وزين عقله بكثرة الجوائز ، ومنها :

١ ـ جائزة (رائد مسرحي) عن حقبة الخمسينات ..

٢ ـ جائزة (رائد) في التأليف المسرحي ..

٣ ـ جائزة (افضل كاتب مسرحي) عن مسرحية (الشريعة) ١٩٧٢ ..

٤ ـ جائزة (افضل ممثل) عن دوره في مسرحية (بونتولا وتابعه ماتي) لبريشت ، وقد تم تعريفها تحت إسم (البيك والسائق) وقدمتها الفرقة القومية باخراج ابراهيم جلال سنة ١٩٧٣ .

٥ ـ جائزة (افضل ممثل) عن دوره (الفضولي) في مسرحية (زينة النساء) وقدمها . المسرح الفني الحديث باخراج قاسم محمد سنة ١٩٨١ .

٦ ـ جائزة (افضل ممثل) عن دوره (ابو زيد السروجي) في مسرحية (طال حزني وسروري في مقامات الحريري) قدمها : المسرح الفني الحديث ، باخراج قاسم محمد سنة ١٩٨٤ .

٧ ـ جائزة (افضل كاتب سيناريو) عن تمثيلية (ثابت افندي) في مهرجان اتحاد اذاعات الدول العربية بتونس سنة ١٩٨٣ ..

وثمة جوائز اخرى ارسلت اليه عن طريق البريد ، وهي مرسومة بالاحبار والزنك على هيئة طيور لعلها تشير الى محبة يوسف للسلام وبعضها على هيئة قلب وربما كان مرسلوها قد عاشوا في قلب يوسف طوال نضاله في المسرح فتذكروه بالقلب باعث الاسرار والنجوى ورمز العهد الذي لن يجف في قلب يوسف ، واخر جائزة وجدانية كبيرة حصل عليها : تتويجه (رائداً للمسرح العربي والافريقي) في سنة ١٩٨٥ .. ويومها صعد الى مسرح مهرجان قرطاج بتونس يتسلم جائزة الرائد ،

يخطب الجمع الحاشد : اليوم اهنئكم انتم .. الذين مازلتم تشدون على يدي وتقولون اعزف وانشد المحبة فانشدت في حناجركم وغنيت في قلوبكم وجعلتكم في المسرح مرآتي ، فهزت القاعة عاصفة وانهمر سيل الاصوات فبكى يوسف وتنهد : ماأجمل الزمان ورؤى الزمان ، ما ضاعت اتعابي ، ماالتوى لساني ، انا قلب وشريعة .. !

التاريخ الناطق

وكان يشير الى رف من مكتبته ويطلب مني دراسته ، هو يسميه (الرف الذهبي) لانه شبه مافيه بالذهب وفيه همومه الاولى التي اودعها في نصوص مسرحية عبرت عن موقفه الاخلاقي في السياسة وفي المجتمع ، فلم اقتنع بتسميته فاسميته (التاريخ الناطق) لانه في هذه النصوص يتكلم بضمير الجمع ، فلاشيء يعلو على ضمير الجماعة لا الذهب ولاتسمياته ولانوره الخادع .. !

ثروة يوسف كلها في هذا الرف ، وكانت تتضمن :

١ - مجموع ماكتبه من مسرحيات وقد بلغت : خمسا وثلاثين ..

٢ - مجموع المسرحيات التي شارك فيها ممثلا .. وقد بلغت ٤٧ مسرحية ..

٣ - مجموع ماكتبه من التمثيليات التي قدمها كان تعبيراً عن

(موقف) مسرحي هازل ناقد ، يعرض حالة في المجتمع ، ثم يحدد موقفا منها ، في سياق سهل سلس ، ومسرحياته في هذه الحقبة لاتخرج عن نشاطه الاجتماعي في كلية الحقوق ، ومن عناوينها تستطيع ان تضع يدك على مضامينها : (في مكتب محام) .. (محام زهگان) .. (محام نايلون) ، او من عناوين بعضها تستطيع ان تتلمس اتجاهات يوسف الاولى : (المعذبون في الارض) .. (طبيب يداوي الناس) .. و(ماكو شغل) وقد شاركه في كتابتها الفنان المبدع المرحوم شهاب الكصب .. ومابعد سنة ١٩٥١ ، اي منذ كتب مسرحية (رأس الشليلة) دخل نضج الموضوع والصيغة الدرامية الى مسرحياته : (موخوش عيشة) .. (ماروح للبيت) .. (لو بسراجين لو بالظلمة) .. (حرمل وحبة سودة) .. (تؤمر بك) .. (فلوس الدوة) .. (ستة دراهم) .. (تتراهن) .. (صديقي الذي مازال يبتسم) .. (اكبادنا) .. (مجنون يتحدى القدر) .. وهذه المسرحيات كلها من ذوات الفصل الواحد ، لكنه منذ سنة ١٩٥٧ بدا يتحول الى كتابة المسرحية الطويلة (نسبياً) .. مبتدئاً من مسرحية (انا امك ياشاكر) التي قدمت سنة ١٩٥٩ على مسرح قاعة الشعب ، وهي اول مسرحية ليوسف تحمل نضجه الفني بل شكل عرضها : حالة متميزة في المسرح العراقي ، ثم توالت مسرحياته (اهلا بالحياة) .. (الدواء والغذاء) وهذه قدمت

للتلفزيون بنفس صيغتها المسرحية .. ثم مسرحية : (م
جديدة ١٩٦٧) و(المفتاح ـ ١٩٦٨) و(الخرابة ١٩٧٠
و(الجومة ـ ١٩٧٥) ـ ولم تقدم الى المسرح وقام باع
كتابتها باللغة الفصحى تحت عنوان (المكوك) ثم مسر
(الشريعة والخان فينهي مرحلة السبعينات) ليبدأ بمسر
(امس عاد جديداً ـ ١٩٨٣) و(خيط البريسم ـ ١٩٨٦
و(نجمة ـ ١٩٨٦) و(الضوء ـ ١٩٨٦) و(الصرير) وم
مسرحية ذات فصل واحد كتبها في سنة ١٩٨٧ عدا ذ
فانه اعد العديد من المسرحيات .. !

المفتاح

ويخيل لي ان يوسف قد ميز بين هذه النصوص المسرحية
واعد بعضها خلاصات لمكوناته الشخصية بدليل انه كان
يضع عدداً منها في مكان منفرد من خزانة كتبه ، وبدليل انه
كان يؤطرها باغلفة خاصة لتكون على مقربة من يده ، كلما
اراد الرجوع اليها في كتابة محاضرة او في إعطاء اجوبة عن
تطوره الفني لصحفي جاء يطلب منه تحقيقاً في عنوان من
عناوين المسرح او السينما .. وهذه المسرحيات هي ١ ـ رأس
الشليلة (وكنا قدكتبنا عن اسرارها) ٢ ـ مسرحية (انا امك
ياشاكر) وافضنا في اسرارها ايضاً .. ٣ ـ المفتاح .. ٤ ـ
لخرابة ٥ ـ الخان .. هذه المسرحيات الخمس أرخت يوسف

مو يوسف اليوم) كاتباً .. تعامل مع الحياة بمرونة ان
الى الحياة بوسيلة من الوسائل الشريفة .. ورائداً اعطى
ه المسرحيات قواعد لبناء المسرح العراقي ، ولااظن ان
فين المسرحيين يهملون هذه الفضيلة في يوسف ان ارادوا
تاريخ مسرحنا بعد مئة سنة او اكثر .. !
مسرحية (المفتاح) ادرك ان وجوده العربي مهدد فثار
نفسه (اولا) (بمراجعة الى الذات) وثار على الانظمة
ية (ثانياً) لانها هي وحدها المسؤولة عن نكسة حزيران
١٩ ، وهذه النكسة هي التي اوحت ليوسف ان يكتب فيها
حية (المفتاح) التي كانت من حيث الاساس تدور في
ل كبير : (من انا) ؟ انا يوسف التي اراد الاخرون ان
بوها في فاجعة ما ، لكنه سرعان مااعاد هذا السؤال (من
) الى صيغة جواب : (نحن شعب) بل ان المسرحية كانت
البه بشيء اعظم من السؤال المحير والجواب المحير وهو :
العمل ، وهو ايضاً كان يرد : ماالعمل وكان جمهور
سرحية يتمزق بين هذه الاسئلة ويرسل الى يوسف نداءاته :
ننتظر .. الانتظار عجز ، وهم ، واذا بيوسف يخرج رأسه
ثغور الستارة ويضرخ : الانتظار .. فيبتسم الجمهور لانه
تفى بهذا الجواب فقد اعتاد هذا الجمهور الوطني الذكي
يعرف الغاز الاجوبة من خلال الايماءات الاولى التي تبدو
الى وجه يوسف فوجهه كما بدا من ثغور الستارة كان متجهما

متصلبا فعندما صرخ بكلمة الانتظار كأنه اوصى لهم باللاانتظار .. فلا انتظار سعيد من انظمة قامت اساسا على الغاء دور الشعب ، لكنه في فصل اخر من المسرحية كان يبعث فيهم الطمأنينة بان تكلم لهم بمايشبه ما قاله الشاعر التونسي (اذا الشعب يوما ..) الارادة تصرع المستحيل وصفق له الجمهور وتعالت من ركن القاعة هتافات وتناثرت مناديل بيض ، اندمج المسرح بالجمهور وكانهما كانا على موعد في الغاء كلمة (المستحيل) من اي قاموس يكتبه الشعب بنفسه .. !

● ● ●

اعتمدت المسرحية على احدوثة (إقصوصة) او ان يوسف كان يبني مسرحية المفتاح على مضامين الفولكلور الشعبي من خلال اقصوصة شائعة في العراق وفي بعض اقطار الوطن العربي تتلخص في (الانتظار المحير لانجاب طفل) وهي هكذا جاء نصها :

ياخشيبة نودي نودي ... أضمها بصنديگي
وديني على جدودي ... صنديگي يريد المفتاح
جدودي بطارف مكة ... والمفتاح عند الحداد
ينطوني ثوب وكعكة ... والحداد يريد الفلوس
والكعكة وين اضمها ؟ ... الفلوس عند العروس

والعروس بالحمام
والحمام يريد قنديل
والقنديل واگع بالبير
والبير يريد حبل
والحبل بقرون الثور

والثور يريد الحشيش
والحشيش في البستان
والبستان يريد مطر
والمطر عند الله
لااله الا الله

● ● ●

من مادة هذه الاسطورة استطاع يوسف ان يسير الاحداث السياسية في عمل درامي نبهنا الى جزء من ازماتنا ، جزء من احباطنا وفشلنا في مواجهة الحقيقة المرة قبل نكسة حزيران (من المسؤول عن مأساة الشعب) كلنا المسؤولون عن النتائج لابل ان مسار الاحداث اثبت : ان بعضنا هو المسؤول عن السقوط والتردي وكاتب المسرحية يوسف هو واحد من هؤلاء الشهود (الشعب) يدين هذا البعض : (فطالما سرنا في طريق مغلوق ونحسبه يقودنا الى جنات تتفتح فيها الامال كالزنبق ولكن بدون جدوى .. الوهم الذي سحر بصائرنا فما كان يقال لنا نصدقه بحماسة دون ان ياخذ سبيله الى تلافيف عقولنا المخدرة عبر سنوات ، اذاً ليسقط الوهم ولنواجه الحقيقة حقيقة قضايانا كلها ..) وقد تنفس يوسف عبر مخارج هذه المسرحية كانت مفتاحاً له في فتح كثير من مغاليق الوهم التي

سادت في حياته باحثا فيها عن طريق بلا ضبابية ولا
كاذب وكان الجمهور منصتا اليه لان يوسف
الحاد ، ذكره بمأساته في صعود وهبوط ملحمي محاول
يقرب علامة استفهام الى اذنيه : هل تنهض .. من هنا
الطريق .. !

الخان السياسي

وهذه مسرحية اخرى كتبها في سنة ١٩٧٦ ، وهي
عقله لانها تذكره بجغرافيته ووعيه السياسي يوم ولد
ويوم صار شاباً ويوم بدأ يرى الحياة على واقعها في
طيبين عاش معهم في الخان وفي ناس اشرار ينظرون الى ال
من خلال بطونهم وانوفهم واموالهم وفي الخان اعاد كتا
قصة حياته بلغة الاحداث السياسية القريبة اليه ، ول
كهولته اوشيخوخته التي نظرت الى تلك الاحداث نظرة تأ
وكان قد كتب هذه المسرحية بدعوة من صديقه الفنان سام
عبد الحميد ..

الخان مكان بجانب الكرخ سكب فيه يوسف اشواقه الاو
فانطبعت في رؤوس كثير من الشخصيات التي ترددت عليه
سامي عبد الحميد يعرف الشيء الكثير عن الخان لقربه م
زمن يوسف ومن زمن الاحداث التي مرت على يوسف ، بمعن
ان سامي كان يرى في يوسف قدرة على استخراج عمل درام

هذا المكان ومن ناسه ومن احداث تلك الحقبة او الحقب
عاصرها الخان .
ذات يوم يمر يوسف على الخان فيجده وقد تلاشى عبر
لاحدود لها ومع النهر كل شيء قد تغير ، المصابيح
رومانية ، المقاهي الصغيرة الملاصقة للخان الازقة اضحت
ارع ، الناس غير الناس الذين كانوا يجلسون بالقرب من
انيت الخان ، انتابته حالة حزن وراح يسرد مع نفسه
ته في الصغر والصبا ، فامتزج في عقله المكان والزمان
ساءل (لماذا لااحاول تسجيل جزء من تاريخ العرّاق
سياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي من خلال
رح ..) ؟ ونظر نظرته الاخيرة الى اطلال الخان ، وغادر
ياته ..
ويجلس في زاوية من نادي الفنانين ، ويكتب في ورقة :
خان .. نعم الخان .. وذهب يلقي على نفسه اسئلة : لماذا
ت الرواية هي الكتاب الادبي الذي يتولى مهمة تسجيل
حداث السياسية كما فعل نجيب محفوظ في رواياته .. انا
ر على ذلك ، انقل الى المسرح احداثا حية موحية يستلم
ا الجيل الجديد عبرة الوجدان ، انا قادر **إذن** مادمت قد
خت في مسرحية (الشريعة) احداث وثبة كانون ١٩٤٨ ،
خت التناقض الاجتماعي والثورة الكامنة في النفوس ،
يش الرغيد للمترفين والفقر المدقع للاكثرية ..

كان يتدفق ويكتب وتتدفق في اعماقه وجدانات الزمن الماضي كان تلميذا بدار السلام الابتدائية وطالبا في متوسطة الكرخ وفي الثانوية المركزية وفي كلية الحقوق والخان هو الخان والخان باق بذكرياته الجميلة الاليمة .**إذن** كم حدثا مـر عليه وكم حالة ارتسمت فيه كم عبرة فيه او خارج جدرانه .. البطل هو يوسف ، ربما هو في هذه المسرحية يقود احداث الزمان على وفق مزاجه **الروحي** لاضير في ذلك فالادباء ينقلون ارواحهم بشفافية الى اعمالهم الابداعية يجمعون فيها انفاسهم وامزجتهم وخواطرهم بجهر او خفاء بقصد او بغير قصد لاسيما اولئك **الذين تتحول ابداعاتهم الى دراما لأن الدراما تريد فردا قويا متحديا حتى تحوله الى (بطل) يقود الاحداث بتلقائية ..!**

من اكبر الاحداث السياسية التي القت عليه ظلالها الوجدانية حدث ثورة مايس ١٩٤١ ، هب يوسف مع الفتيان في متوسطة الكرخ يحمل مسدسا ثائراً **برهافة** اعصاب وكلهم ينتمون الى (الجوالة) وكانت الجوالة تحافظ على ارواح الناس من عواقب الغارات الجوية التي تقوم بها الطائرات البريطانية بصلف وغرور ، قال له ضابط وطني يا يوسف انت وفرقتك اذهبوا الى ذاك السوق واجردوا المواد الغذائية فجرد المواد بالسجل وفي خان عمه : ضجيج حركة اشخاص وقع اقدام قوية ظلال وظلال من الامس لكنها اسرار واسرار

الوجدان من ذاك الامس ، اذاً لتكن البداية من هناك ، بداية مسرحية الخان من احداث مايس في عمق ابطالها في وهج الحريق الذي أشعله الشهداء ..!

لم يجعل بغداد بل لم يجعل (الخان) حيزا مكانياً في مسرحيته انما كان العراق ، طور النسبي الى الشامل بوعيه السياسي ثم اتخذ من شخصيات الخان الذين يعرفهم امثال : عمه صاحب الخان اخوانه العمال : الجابي ، اصدقاؤه الذين كانوا يمثلون معه ادواراً خيالية في عنابر الخان اتخذ من هؤلاء رموزاً مادية لوحدة الشعب جمع الزمان في المكان بالمنطق والوثائقية بالمنطق لكن المسرح ليس منطقاً وحده ، وبما ان التمثيل اسبغ على المنطق حياته العاطفية ، مراهقته وهو طالب يحلم بالحب والمستقبل والاستقلال فتحول المنطق الى دراما يقبلها المؤرخ والمشاهد الاعتيادي في آن واحد .. سجل التاريخ بالمتعة المهذبة .. !

كثيرة هي خيوط العمل الدرامي للخان .. وبين هذه الخيوط قال يوسف قولا كان يجب ان يقال ، وغاص (بالقدر) الذي به استطاع الغوص الى اعماق المجتمع العراقي ليرسم اولا حركة احداثه ومن ثم شخص التاريخ في حركة احداثه تشخيصاً صادقاً وبالقدر الذي استطاع .. وثمة اسباب اخرى جعلت يوسف بارعا في ان يسجل التاريخ بالدراما كون مخرج

(الخان) وهو سامي عبد الحميد تفهم بشكل دقيق الرؤية الفنية للتاريخ التي صدرت عن يوسف بل كان متفهماً فهما سياسيا لكل ماارد يوسف ان يقول فنجح الاثنان في جعل المشاهدين قراء اذكياء ونجح الممثلون والممثلات كذلك في تمثل روح المسرحية وتقديم ادوار لائقة بمكانة المخرج والمؤلف .. ونجح كذلك مصمم الديكور الفنان المرحوم (كاظم حيدر) الذي تربطه بيوسف رابطة الجيل الواحد فاعطى للمكان مايستحقه من لون وللزمان مايستحقه من الوان ومن كل هذه الالوان رسم الجو الواقعي للزمان والمكان في هذه المسرحية .. !

جيله

بل كل هؤلاء جيله بنوا في مسرحه شيئاً من انفاسهم فقد . احبوه وحفظوا اثاره ونقلوا اسمه في لوائحهم ومجالسهم كانوا فنانين وشعراء وادباء ومعماريين يجتمعون على شيء واحد ان يطوروا فضيلة الانسان من خاص الى عام كانوا جيلا خصبا يعطي اكثر وياخذ القليل الاقل ، فلذلك رسموا اللوحة

الباهرة وكتبوا القصيدة المقروءة ودرسوا المجتمع بامانة العلم كانوا يحققون تآلفا بينهم وبين الجماعة كان الفن لغزاً وكانت القراءة لغزاً بل سحراً ..!

وكان المسرحيون جيلا ، شبابا في كليات الطب والتجارة والحقوق **والعلوم** ..كل مجموعة من هؤلاء تتميز بشيء بذات او بفن او **بمنهج** ،لكنهم يجتمعون في مسرح واحد هدفه الجماعة الاكثر والجماعة الاعمق والتاريخ الاقوى لكنهم هواة ولم يفكر احد منهم بالاحتراف لم يكونوا رومانسيين بل واقعيين يدركون ان المسرح وسيلة هياج وربما في هذا الهياج العاقل يغيرون شيئاً من صور الحال في المجتمع . جيله كان يدرك ويكتب ويمثل ، في كلية الحقوق كان معه سامي عبد الحميد وبدري حسون فريد واسعد عبد الرزاق واخرون ، سامي وبدري كانا يحلمان بالمسرح الجاد فسبقا يوسف لدخول معهد الفنون الجميلة ، ويوسف يحلم بمسرح هازل (ناقد) يحمل (النكتة) التي تخدش الواقع اللامعقول بل كان يحلم في ان يكون له مسرح كمسرح الريحاني يرسم فيه الرؤوس الكبيرة المتحكمة بالرقاب على هيئة دمى مبعثرة تذروها رياح من الرياح العاصفة ولانه حالم كان مؤمناً ولانه مؤمن كان المشاهدون **يأتون** الى مسرحه من كل فج عميق خاطبوه **بالالفة** وخاطبهم بالقدرة ، في ليل يجتمع مع السياب والبياتي وكاظم جواد وعدنان الراوي وفؤاد التكرلي وبلند

الحيدري ويتحدثون عن (البطل) في روائعهم واذا ضل البطل طريقه في احدى روائعهم تنبه الجميع وسدوا الخلل وفي النهار يجتمع مع رواد الفن جيله. يقترح على بعضهم ان يرسم بغداد كما هي ازقة بلا نور ومساكين يتدثرون باسمالهم الممزقة قرب جدران المساجد ويقترح عليه الرائد جواد سليم : يا يوسف هل ترضى ان انحت من وجهك تمثالا ، لا ، نعم ، لا ، واقتنع كان جواد سليم يعشق سمعة يوسف بين الناس هذا الهدير الذي هز قاعدة **الاذناب** ،كانوا جيلا تعلم بصمت ويستمع بصمت واولئك الذين يشدون حواسهم الى الناس بصمت ويقرأون قلوب الناس بصمت ويصنعون في هذا الصمت عواطفهم الفنية هم وحدهم القريبون الى الشعب وهذا الشعب وحده يكافئهم التاريخ **أغير** التاريخ كان هدف هؤلاء .. !

● ● ●

بل كان التاريخ مدرسته الاولى ومازالت هي الاولى ففيها كتب مسرحية **(رأس الشليلة)** فثار سخط الساخطين **ومثل** (مسمار جحا) وضربه في عمق شركة النفط ، وكتب (الطاحونه الدرامية) متحدياً بها اساليب الزور التي يمارسها الانكليز. كتب الاقاصيص والحكايات كان يكتب ويتخيل عالما مقبلا بالخير والمجد ، بل انصاره والمشاهدون يرددون في نهاية كل مسرحية : سقطت جميع الاقنعة .. !



الكبرياء

أنا يوسف
رأسي يعلو
وكلماتي ..
وعصاي
أبحث عن حلم
الارض
عن موكب نهر
الفجر طريقي
والحب طريقي
أنا يوسف
قلبي مثل قلوب
الطير
ولساني
سيف وشرارة
لاكسر قلمي
لاحرث في رمل
يارفاقي
الحب صلاة ..
اعشق ارضي
ورفاقي
والعراق .. !

الاعتراف

قال : اتركني ابحث عن ذاتي فتركته يبحث عن حريته في اسئلتي :

س ـ يايوسف هل تشبه بطلا من ابطال (الف ليلة وليلة) .. ؟

ج ـ في المسرح فقط ..

س ـ يايوسف جرحك جرحان ..؟

ج ـ جرح الانسان وجرح الزمان !

س ـ وروحك روحان .. ؟

ج ـ روح معي وروح مع من احب !

س ـ يايوسف وجهك وجهان .. ؟

ج ـ وجهان في وجه واحد !

س ـ فأية صلاة تصليها .. ؟

ج ـ صلاة المحبة !

س ـ واية صحراء تهيم في بواديها ..؟

ج ـ صحراء المحبة ايضاً !

س ـ وقل : من اي انس انت في هذا الزمان .. ؟

ج ـ ممن خلقهم الله ، فملأ قلوبهم طيبة وسحراً حلالا ..!

س ـ حلم واحد حلمت ولم يتحقق ..؟

ج ـ ان تموت الانانية في قلوب الناس !

س ـ اذا هددك شيطان في الحلم .. ؟

ج ـ افزعه في اليقظة !

س ـ هل مثلت دور الشيطان .. ؟

ج ـ لا ..

س ـ اي الادوار تحب ان تمثل .. ؟

ج ـ كل الادوار التي يتوفر فيها مجال الابداع وامتحان قدراتي !

س ـ من اية طينة خلقت .. ؟

ج ـ من طينة طيبة !

س ـ عدد جمهورك في العراق ..؟

ج ـ كثيرون ومن مختلف المستويات !

■ اسئلة من يوسف الى المطبعي

يوسف ـ ماالذي دعاك الى نبش جذور عدد من الشخصيات الادبية والفنية والثقافية .. ؟

المطبعي ـ هو ليس نبش جذور وانما بحث ودراسة عن الق الجذور في رواد الثقافة هذا اولا ، اما اذا سألت عن الدواعي فياليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً .. !

يوسف ـ كيف بدأت باصدار مجلة الكلمة في الستينات ولماذا توقفت عن اصدارها .. ؟

المطبعي ـ بدأتها بتحدي الثقافة اليمينية واوقفتها متعمداً لاسباب قاهرة .. !

يوسف ـ كتبت عن شخصيات كثيرة في (الجذور) من اراحك ؟ ومن اتعبك ..؟

المطبعي ـ كلهم اجلاء رواد في مجالاتهم فانا اتعبتهم اكلت من صحونهم وشربت من محابرهم !

يوسف ـ اذكر عشرة افلام او عشر شخصيات كان لها دور في حياتك الادبية والشخصية .. ؟

المطبعي ـ هذا من شأن الباحثين النفسانيين ، اما انا فلا اعتقد ان شخصا دخل في عقلي واعاد تركيبه وهز طبعي وابدل معادلة بمعادلة انما انا تركيب انساني امتزجت فيه تأثيرات من صفات هؤلاء :

١ ـ الكتاب الذين لايخونون عقولهم في لحظات الفاجعة ..

٢ ـ الكتاب الانسانيون الذين يمجدون وحدة الانسان ..

٣ ـ الكتاب الشهداء

٤ ـ الكتاب الذين يدركون انهم في كتاباتهم خالدون اوستخلدهم الانسانية .. !

○ بقاء للغد ..

ليس اهم من ان تؤصل الاشياء تسير الى ابعد نقطة من مكوناتها ذلك يعني تثبيت حقيقة ، حقيقة لاتمر بلا دلالة وبلا فائدة وبلا عظة ، فالانسان منذ مولده وعبر سنوات عمره الغنية بالعطاء والابداع جدير بالتأمل والدراسة .. وتجذير الانسان المبدع في التاريخ والحياة يؤدي حتما الى المعرفة الشاملة .. كل منا قدم وأخَر وكل منا تربطه مع الاخرين علاقات متعددة وكثيرة ومن هنا ياتي النفاذ الى الاخرين عبر تاريخهم وتجربتهم وعطائهم حالة مهمة للمعرفة وكشفا عن عوالم خفية ومجموع هذا الكشف هو الذي يعطي للحياة سعتها وحقيقتها .. «الجذور» وثيقة بقاء للغد ، تعيش مع الناس لتظل تاريخا معاشا يقرأه الاخرون الاتون بعدنا ، ليأخذوا منها عبرة او منهجا من المناهج ، عونا لهم في مسيرتهم .. فشكراً لمن فكر ونفذ وحقق فكرة (الجذور) وصفحة (الجذور) ..

من رسائل يوسف العاني الى المطبعي)

الفصل السابع

خصومه فئات
ومنصف واحد معه :
هو التاريخ ..!

يشترك في الذكرى السبعينية لميلاد برشت في برلين سنة ١٩٦٨

صور ورحلات

وفي ركن من مكتبته (البومات) صور، تقرأ عليها عبارة (رحلات يوسف العاني) وكان قدرحل بها الى آفاق الارض، مفتشا عن (نماذجه) الانسانية، وربما كان يبحث فيها عن شوقه الدفين الى اسرار البشر، ويبدو لك ذلك من اول نظرة في هذا الخزين التاريخي الجميل، اذ آراه بين قارة واخرى واقفاً بين مجموعة من الناس ترتدي ازياء غريبة وتتكلم لغات غريبة، ومجتمعا في كهف اخضر بين احمر واسود واصفر، وهم يرفلون بسعادات خاصة، ويستعينون بالزمن لتصريف شيء، ثم رأيته بين جموع محتشدة بالامل، تهتف بايد او بعيون او بكلمات عالية الايقاع، يوسف في هذه القارات استعان هو ايضاً بالزمن لامتصاص خبرة من خبرات الجنس البشري، واهم هذه الخبرات: الاندهاش والتمثل، يشرد بذهنه الى شيء يلاحقه، ثم يستعيده بتمثل حالاته ولاسيما اندهاشه في الوجوه، وليس له غير المسرح في هذا الاندهاش، يوظف وجدانه الانساني في البصر، يعمقه، كلما التقى بوجه غريب، يتفحص عينيه، قسماته، غرابته، ملامحه البيئية، كل شيء فيه علاقة بالمسرح، ودائماً يفعل المسرحيون الكبار مثل يوسف في تفحص الوجوه في سفراتهم الى الدنيا، فمن كل وجه ياخذون ملمحا، او شريحة او نظرة

مفاجئة ، ويركبونها في (شخصياتهم) اذا كانوا كتابا انسانيين لان هؤلاء مدفوعون (غريزياً) بتطوير وجوه شخصياتهم البيئية او المحلية من وجدان محلي الى وجدان مطلق ، اذا كانوا ملحميين ، لان المسرح الملحمي اعتاد ان يحول النسبي الى عام ، بحيث يصبح الملمح والشريحة شرائح ، ويصبح الوجه المحلي وجها عاما وقضاياه قضايا عامة ، وفي هذا المزيج الانساني انتسب يوسف الى المسرح العالمي ، بنقل حالة الوجه المحلي الاصيلة المعبرة الى وجدان الحالة الانسانية الكبيرة ، وهذا فعل درامي انساني مهم ، اذ بأمكان الانكليزي او النرويجي او الهندي ، ان يتابعوا مسرح يوسف ، في المسرح المكشوف او في شاشة التلفزيون ، وان يتمتعوا بحرفة شخوصهم وهمومهم ، لان يوسف نقل لهم الافكار بالدراما ، ولانه كان ينسج لهم همومهم بصيغة الدراما الانسانية ، مخترقاً حدود اللغات والمشاعر البيئية الاخرى ، حدث له هذا ، في مسارح خارج العراق ، ويحدث الشيء نفسه في بغداد ، فطالما انشد اجانب الى حركته في المسرح وهم يتابعونه في فصوله المسرحية في تلفزيون بغداد .. !

● ● ●

ثمة صور في ارشيفه منذ اواخر الثلاثينات ... يوسف يركب الخيل في بساتين الفلوجة وبين اشجار الربيع ، ليس المهم ركوبه الخيل وامتشاقه السيف الخشبي يلوح به في هواء

الربيع ، هذه حركة مسرحية بدائية جامدة ، انما وجدناه على حقيقته في عينيه يرمي عينيه في الصميم ، الى عيون اترابه ، وهم ايضا يركبون الخيل ويفعلون فعلا مسرحيا جامدا ، راميا بتشبث ، يريد شيئاً من عيونهم ، اكثر مما هو ظاهر في عيونهم ، ربما هو كان لايدرك هذه الحالة التشبثية البصرية فيه ، لكنه كان مقدراً عليه ان ينفذ ، ويتغلغل في (وجوه) اترابه باحثا عن حالة المسرح فيها ، اية حالة يجد فيها تلازما بمزاجه المسرحي ، بل كان مقدرا عليه ان يختار منذ بداية فتوته اية وجوه تصلح للمسرح ، واية وجوه تؤدي ادوارا في مسرحياته او تمثيلياته وهذا فعل غريزي مهم في حياة الموهبة المسرحية ، اذ المعروف ان مسرحيين كبارا رفضوا ادواراً مسرحية اعطيت لهم من مخرجين لانهم وجدوا وجوها محشورة لاتلائم حركة وجوههم ، او لان هذه (الوجوه المحشورة) هي وجوه محشورة حسب ، ويوسف حتى هذا اليوم لايقبل بسهولة ان يحشر وجهه بين وجوه غريبة على مزاجه فيرفض الادوار ورفض العديد من الادوار ، حتى المخرجون عرفوا في يوسف هذا الطبع فلاءموا بين طبعه والوجوه الاخرى ، فنجحوا في الاختيار ، ونجحت مسرحياتهم ..

● ● ●

ونشأت الرحلة فيه مع نشوء موهبته للمسرح ، بل تداخلت

الرحلة للمسرح في موهبته تداخلا قدريا عجيباً ، فمنذ صغره كان (يفرض) على اهله السفر الى المدن ، لان فيه هاجساً يلح عليه في هذا السفر ، ان يمثل مع صغار بين الشجر او على ضفاف الانهر والجداول ، فكانوا ياخذونه في الاعياد وفي فصول الربيع ، وهناك يترصدونه بملابس جديدة ، جاء بها (خفية) يؤدي فيها دور البهلوان او اي دور من ادوار عنترة بن شداد ، فيقضي اياما على وتيرة اداء المشاهد الكوميدية الهازلة ، واياما يمتع بها حتى الكبار في بساتين الفرات ، بالنكتة عن طريق الحركات الجسدية ، هو (منكت) بارع ، وفطرة نشأت فيه (النكتة) وعلى غير اصطناع ، وقادر على ان (يلعب) على ذقون ووجوه بالنكتة ، بتحويل الرثاء الى فرح والفرح الى حزن ، وليس الحزن غايته ، انما المتعة ، ان يزيل هما ، ان يلين اعصابا حادة ، وفي السياسة جعلها وسيلة ، كفعل المنشور السياسي ، غيرَّ بها الاسود الى الابيض والاسوأ الى احسن ، وفي حقبته الاخيرة ترك النكتة في مسرحه ، لانها تكررت ، ولانها لم تعد مستساغة من جمهور تطور في فهمه للاشياء ، ولان يوسف استعاض عنها بـ (المناورة) الكلامية في حوار ملغز ، وفي حركات من عينيه ويديه ، هي عادة لاتزال ، انما انتقلت من مكان الى اخر على وفق رؤى العصر وعلى وفق تطور الاذواق والحواس والسياسة .. ومن طريف مايروى عن اصدقائه ، انه كان ينتقي من بين اصدقائه نظيراً

له في اداء المشاهد في كل رحلة يرحل بها الى المدن ، ولاسيما صديقه : (غزال ابراهيم) البارع في التصوير، والبارع في الصوت ، الذي كان يقاسمه بحماسة التمثيل ، وكان يتولى اجراء (الماكياج) ليوسف ، فيحول وجهه الى وجوه عديدة ولمشاهد عديدة ، وكانت لهما محفظة خاصة تلازمهما في الرحلات ، يحفظان بها انواع الاصباغ والحلي الشعبية والاقنعة الملونة على هيئة حيوانات او هيئة وجوه متوحشة ، وهناك اذا ارادا ان يعقدا مشهدا في بستان نصبا حبالا بين شجرتين اسدلا عليها بعض الحجب كانها ستارة المسرح ، وماهي الا دقائق حتى يسمع السائحون صوتا جميلا يتهادى رقيقاً ، رخيما يسحر الافئدة ، واذا هو صوت صديقه غزال ابراهيم يخرج عن اغان ريفية بمهارة المطربين الاوائل ، وما ان يجذب اليه جمهوراً من الجمهور ، حتى تنقشع الستارة ويقفز يوسف البهلوان امام الجمهور ، تتدلى من ذقنه لحية سوداء طويلة وعلى رأسه قلنسوة بيضاء ، فيقوم يؤدي مشهداً هزلياً يشبع به غريزيته ويلبي له او يطمئن به حاجات وكوامن موهبته المسرحية ، ويشبع به قلوب المتفرجين .. !

● ● ●

ولما صار شاباً لامعاً في كلية الحقوق ، تخيل مسرحه يمتد من الاقصى الى الاقصى ، فاخذ يشد الرحال الى مدن الشمال ،

ولاسيما (شقلاوة) التي الهمته اخيلة الجبل وغزل الشلالات الهادرة البيض ، وبهجة فرسانها وشبابها الذين ما انفكوا يزورون يوسف في مقره في فندق الشمال ، بين يوم ويوم ، ياتون اليه بورد الشمال واغصان المحبة ويبلغونه برسائل الموائد ، يذهب الى بيوتهم ، فيسمرون في الليالي ، وفي يوم كان ربيعاً دعاه مختار القرية الى حفلة عيد وهناك في بستان كبير احاطوا به ، وزمر الزمار وطبل الطبالون ، ورقص معهم بالفولكلور الذي يرقصون به ، وامام شمعة ملونة كبيرة استمع اليه رئيس القبيلة والمختار وشباب القرية يحدثهم بلغة التمثيل ، ويمثل لهم بلغة الحديث ، حتى ادخل الحشد المحتفل باجواء المسرح ، فقام على منضدة عالية يؤدي مشهدا من مسرحية اداء صامتا فيه لباقة يوسف وهبي وحركات شارلي شابلن وبنفس الممثل العراقي الذي يثير السخرية حتى شاع خبره في القرى الاخرى ، فكثرت عليه الزيارات وتعددت دعواته حتى زار الشمال في فجاجه ومنعرجاته ، ووديانه وسهوله ، فأهدوا له الصور والتذكارات والجوز واللوز والياسمين وشيئاً ثميناً اسمه : القلب الدائم بالمحبة .. !

• • •

وكلما كبر حلمه في المسرح ، ساح في ارض طويلة شعابها ، رأى الدنيا من عين ممثل ورأته الدنيا من عين حالمة ، ممثلا

لابد في يوم يبني مسرحا من زمر الطيور والقلوب ، يلون فيه الدنيا بامزجة الدنيا في حلم سعيد ، فساح في الارجاء ، الى المغمور والمعمور من الارض ، كلما وجد قلبا يحتضن مشاعره ، ومسرحاً يمثل فيه حريته بطلاقة ، لكن هذا لايعني ان يوسف يعشق السفر على انه غاية ، وانما وسيلة لتحقيق غرضين في نفسه ، الاول : تحديد الطاقة البصرية فيه في امتحان (شخصياته) في شخصيات الناس ومحاولة اغنائها بالمؤثرات البيئية الاخرى ، والثاني : عرض موجوده المسرحي على مدارس مسرحية اخرى ومدى اقتراب شخصياته مع طبيعة شخصيات الاخرين ، وكلما حاول المبدعون تطعيم (كائناتهم الفنية) بأمزجة انسانية اخرى ، ارتفعوا بكائناتهم الى مستويات رفيعة وربما مثالية ، ارتفعوا تجربة الى مستوى المعاناة ، وارتفعت معاناتهم الى مستوى القدرة الفنية البارعة .. ولاننكر ان ثمة ميزة تلازم يوسف في رحلاته ، هي : الحنين الى حد الاكتئاب الى ارضه واهله ، اذ ينتابه شعور مفاجيء بالفراق الابدي كلما ابتعد لحظة السفر عن اي جزء من اجزاء بيئته ، وقد يصل الحنين هذا الى احساسه بدمع حار يتساقط من عينيه ، وقد (يعيب) عليه اصدقاؤه ، على هذا (الحنين) الجامح ، للوطن ، ويترجم لهم مشاعره بكلمة : (ليش عيب) ثم يصمت صمتا مذهلا .. !

مؤتمر ومهرجان

والمؤتمرات التي شارك فيها في دول بعيدة ، هي وسيلة اخرى في النفاذ الى العالم واكتشاف المتطور وغير المنظور في هذا العالم ، واكتشاف ماهو غير مكتشف في نفسه ، اذ يجعل من كل مؤتمر رحلة له ، يضيفها الى رحلاته ، فيوسف على غير سياق آخرين ، لايريد ان يحصر ذاته في قاعة وفندق ، ولايريد ان (تخدعه) بهارج السفر ، فهو اذا عزم الرحيل الى مؤتمر ، وضع امام عينيه خارطة البلد المضيف ، هذه آثاره ومسارحه ، ومن اين يبدأ الطريق الى مشاهيره من رجال الفن هو يريد ان يوزع جميع حواسه على الخارطة ، ان يتغلغل الى الاعمق والاشهى في هذه الخارطة ..

● ● ●

وعبر سبع وثلاثين ندوة ومؤتمرا عقدت في دول عربية وعالمية ، استطاع يوسف ان ينفذ الى شهرته من اوسع الابواب ، استطاع ان يحمل على كتفيه المسرح العراقي ويبشر به وبأفكاره على لغات اكثر من قارة واقليم ، بالمحاضرة الامينة ، بالمداولات الخاصة ، وبطبع المنشورات الخاصة ، وهو ايضاً اغتنى باطلاعه على تيارات ومدارس المسرح العالمي ينقل ويكتسب ، لكنه بقي محافظاً على (تطوره الخاص) اذ هو لاينفعل في تجربة ولايركض وراء الاسماء الكبيرة لكنه



في مهرجان الخلق المسرحي بتونس سنة ١٩٧٠

(يقتبس) في ما اراد ان يحافظ على تفاعله الانساني، اقتباساً ذروياً ، في ماأراد ان يطور اداته وليس الجوهر، وجوهرة ثابت ، وهو نكهة في الارض ونكهة في الفولكلور العراقي ، ونكهة في يوسف العاني المشهور ، الفنان الشعبي الذي استقامت فيه مثل المسرح العراقي ...

كان مؤتمر السينمائيين الشباب هو اول مؤتمر يحضره سنة ١٩٥٧ في مدينة (كييف) بالاتحاد السوفيتي ، وفيه التقى بالممثلة السوفيتية الكبيرة ايرينا **سباسكوفا** ممثلة دور دزدمونة في الفيلم السوفيتي (عطيل) وكان له معها حديث **طويل في (معنى الفيلم الشعبي) والفيلم الانساني ، كما تحدث في محاضرة عن تطور السينما في العراق نشر بعض تفاصيلها في الصحافة ..**

وفي سنة ١٩٦٢ حشر مشاركا في مهرجان **(كارلو في فاري)** السينمائي الذي عقد في جيكوسلوفاكيا ، وهو اول مهرجان استطاع من خلاله التعرف على عدد من المدارس السينمائية وعلى عدد من المخرجين السينمائيين **العالميين .**

واشترك في ندوة عن المسرحية العربية اقامها في القاهرة

لمركز العالمي للمسرح سنة ١٩٦٩ ، وتحولت الندوة الى مايشبه الحلقة الدراسية التي ادار مائدتها الدكتور على الراعي وعبدالقادر القط وشارك فيها جلال الشرقاوي وعايدة عبدالعزيز واخرون من العرب والاجانب ، وفيها تحدث يوسف عن (الكتابة المسرحية) مستعرضاً المسرح العراقي ، كانت تعريفاً بالمسرح العراقي ... وفي سنة ١٩٧٠ انتخب مقررا لمؤتمر الخلق المسرحي الذي انعقد في تونس ، وقدم فيه موضوعاً اثار انتباه المسرحيين العرب ، وهو شرح تجربته المسرحية من خلال مسرحيتين (المفتاح والخرابة) وكان فيه مطبقاً ومنظرا سرد اسلوب الكتابة وافكارها واوضح خلفية الاخراج والتمثيل معتمدا في ذلك على اراء صديقيه قاسم محمد وسامي عبد الحميد ...

ومن المؤتمرات المهمة التي حضرها يوسف واثار فيها جدلا واسعا عكسته الصحف العربية ، المؤتمر المسرحي للعالم الثالث الذي عقد ببيروت في سنة ١٩٧٤ وانتخب فيه المعتمد الرئيس لادارة الجلسات ، ومن الامور المهمة التي اثيرت في هذا المؤتمر (ذيلية مسرح العالم الثالث) ومحاولة ربطه بارشيف اي مسرح اوربي او اميركي ، بل ان ممثلة الفلبين ذهبت الى اكثر من ذلك حينما طالبت بان يوضع مسرح العالم الثالث تحت (وصاية) المسرح الاميركي لان هذا العالم الثالث بحسب زعمها لامسرح له .

مما حدا بيوسف الى ان يفحم اقوالها ويفند اراءها برجوعه الى تاريخ نشوء مسرح العالم الثالث ، مستعرضاً تطوره نظريا وفكريا وجماهيرياً ، فلم تقتنع هذه الفنانة بل تمادت في ارائها وخرجت على نظام المؤتمر ورفضت الالتزام بنظام جلساته ، فاخرجها يوسف من المؤتمر فأيده المؤتمرون ونجح في افكاره .

● ● ●

بل كان ناجحاً في كل مساهماته في المؤتمرات .. عقل بتجربة ، وفكر بتجربة ، ويد تمثل بتجربة ، وكان يلقى هتماما بهذا النجاح وفي كل مكان ولاسيما في مصر العربية ذات المسرح العريق ، فيوم اقيم الاسبوع الثقافي العراقي في القاهرة سنة ١٩٧٥ وصعد يوسف على مسرح (حديقة الازبكية) يمثل في مسرحية (البيك والسائق) استقبل بعاصفة من رضا الكتاب المصريين : (هذا هو المسرح الذي نريده) كما عبر عن ذلك الكاتب المعروف : لطفي الخولي ، و(ان يوسف العاني ممثل عالمي) كما كتبت لطفية الزيات في مجلة الطليعة بينما بكى عبد الرحيم الزرقاني وامينة رزق وفردوس حسن وشباب من معهد التمثيل المصري لانهم اكتشفوا في بكائهم صدق المسرح العربي متالقاً في المسرح العراقي ، واطرف ما في الامر ان حسن فؤاد نشر في مجلة (صباح الخير) رسما كاريكاتورياً ، يظهر فيه المسرح المصري

وهو نائم وبجانبه ساعة منضدية يدق جرسها وعلى الجرس كتبت عبارة : (المسرح العراقي) .

كاتب التمثيليات

وفي سنة ١٩٨١ كتبت الصحافة التونسية ، ان يوسف العاني (معلم التمثيلية العربية) لانه في مهرجان التمثيلية التلفزيونية الاول المقام من قبل اتحاد اذاعات الدول العربية المنعقد في تونس في نفس ذلك العام ، كان قد وضع الاسس الواضحة للتمثيلية الفنية ، في بحث القاه في المهرجان بعد ان اختير رئيساً لهيئة التحكيم .. ومنذ ذلك الوقت تصله رسائل من ممثلين عرب يسألونه في شيء من اشياء فن التمثيلية ، وكان دائماً يقول لهم لاتكتبوا تمثيلية بمثل ماتكتبون مسرحية ، اجعلوا لها خصوصية ، ابعدوها عن صيغ المسرحية تأليفاً واخراجاً وتمثيلاً ..

● ● ●

وشاعت تمثيلياته في التلفزيون منذ سنة ١٩٥٨ ، بتقديمه (ماروح للبيت) و(لويسراجين لو بالظلمة) وغيرها .. ثم بدأ يكتب تمثيلياته خاصة للتلفزيون ، من اهمها او من تلك التي بقي طعمها حاضراً في حواس الناس : (ولد هلوكت) و(بنات هلوكت) و(مو وكتها) و(واحد اثنين ثلاثة) وكانت كل هذه التمثيليات تدور في قضايا اجتماعية اراد من

خلالها ابراز الجانب التربوي باسلوب هزلي يعمق فيه الوعي الاخلاقي ويعمق به العلاقات الحميمة التي ينبغي ان تعم العائلة العراقية ..وكتب تمثيليات مستوحاة من (الطرف) كانت تحمل عنوان (ناس من طرفنا) اخرجها الفنان المرحوم ابراهيم عبد الجليل في حقبة السبعينات ثم توقف عن كتابتها ليعيدها في سنة ١٩٨٦ ، لكنها لم تكن بالمستوى الذي قدمت فيه اول مرة ..

على حساب من

بهذا الاسم كتب تمثيلية وكادت توقعه في ورطة سياسية حينما عرضت في تلفزيون بغداد في بداية **الستينات** ،والحق انه كتب نصها قبل سنة ١٩٥٨ ونشر النص في مجلة السينما ، وكانت تتناول بالسخرية المكاتب السينمائية التي كان يؤسسها (محتالون) بحجة انتاج افلام سينمائية بهدف ابتزاز اموال الشباب الذي يحلم بالظهور في افلام سينمائية عن طريق جباية (الاشتراكات) الدائمة وكانوا يظهرون بمظهر العارفين بالسينما وانهم اقاموا علاقات ادارية مع المؤسسات السينمائية المصرية ، وهكذا ادان يوسف هذا (الغش) الحرام في التمثيلية وحينما عرضت في التلفزيون وجد المسؤولون فيها (غمزا) بعبد الكريم قاسم ، فأوقفوا مخرجها (يوسف جرجيس حمد) الذي كان في ذاك

الوقت مديراً للتلفزيون ، وقد اتصل وزير الارشاد المرحوم الدكتور فيصل السامر بيوسف العاني متسائلا عن النص الاصلي فجاء اليه بالنص وادرك اسرار اللعبة التي حيكت ضد المخرج ، وكتب السامر يقول : ليس ثمة علاقة بين هذا النص وشخصية الزعيم قاسم .. اما موقع (الاشتباه) في التمثيلية فهو ان يوسف العاني جعل الشخصية الرئيسة في التمثيلية يكرر : (انا وحدي) .. انا العارف بكل شيء القادر بكل شيء ، وان اسم الشخصية كان باسم (اكرم) ولهذا التبس الامر على المسؤولين وظنوا ظنونا فيما كان امر التمثيلية على غير ماظنوا ، فيوسف لم يغير في الاسماء ولافي الحوادث حينما قدم التمثيلية الى التلفزيون لكن الاقدار تشاء ان يربح يوسف الشهرة من هذه التمثيلية لانها كانت على قدر من الاتقان والطرافة جعلها تقع عند المشاهدين موقعا جميلا ومريحا ، ولانها ضربت على وتر حساس بقصد او بغير قصد ..

ليطة

وكتب تمثيلية باسم (ليطة) .. تركت اثرها الكبير على الجمهور عندما قدمت في التلفزيون سنة ١٩٦٢ ببراعة المخرج خليل شوقي ، وملخصها : صبي معوق ، يتزوج ابوه امرأة بعد وفاة امه .. الزوجة لعوب ، تقوم باضطهاد الصبي في

غياب والده عن البيت ، اضطهاداً فيه سادية وقسوة ، ولم يتحمل الصبي اهانة زوجة والده الدخيلة ، فثار عليها وخرج من الدار مع اخيه وابنة عمه ، بعد ان داس وركل كل الادوات التي كانت الزوجة الدخيلة تستخدمها في اضطهاده وتعذيبه ..

قدمت التمثيلية في ظرف كان الناس في حالةِ تمزق واختناق فجاءت تعبيراً عن مكنوناتهم ، ومتنفساً لهم من جهة ووسيلة تعبيرية عن احاسيسهم ومشاعرهم من جهة اخرى . وبعد عرضها بايام التقى بيوسف عامل بناء في شارع ودار بينهما حوار :

● استاذ يوسف .. هل قصدت بهذه المسلسلة شيئاً سياسياً ..؟

ـ فسر ماشئت !!

● استاذ .. نحن فهمنا هذه التمثيلية .. (جميل) الصبي الاخرس الذي لاينطق هو الشعب العراقي .. انه صابر ، ساكت .. لكنه حين يثور يدمر كل ادوات الاضطهاد ..!!

ـ هل فهمت التمثيلية هكذا ..؟

● معلوم .. (احنه مفتحين باللبن) !!

رسالة .. في التأميم

ويوسف اعطى حبه لحدث التأميم في العراق فكتب في

تأميم النفط سنة ١٩٧١ تمثيلية اثارت الكثير من التساؤلات والنقاشات التي انصبت حول (المباشرة) في العمل الفني .. كان الشارع ملتهباً والقيادة تفاجىء الشارع شيئاً فشيئاً بانجاز الحدث التاريخي ، ويوسف واحد من هؤلاء الفنانين الكبار ، وكان عليه ان ينفعل ويتفاعل مع الشارع والاحداث ، انفعل وادرك مسؤولية الاسهام في توعية الجماهير وبالقدر الذي يستطيع ان يعبر به فعبر بالدراما بوسيلة التلفزيون ، اذ يظل التلفزيون الاوسع والاسرع في ايصال الافكار الى الجمهور ، وكانت تمثيلية (رسالة) وثيقة في حبه للشعب ..

كان عليه ان يضع شخصية ايجابية مؤمنة في التمثيلية ، تؤمن بحدث التأميم السياسي والمصيري الكبير ، وعبر قناعة هذه الشخصية يتسرب الموقف الصحيح والمحدد .. في التمثيلية ام مسرفة والمرحلة تتطلب (التقشف) وهناك عامل يعمل بشرف ونقاء ويهزه حدث التأميم فيكتب شعراً ، ويدور جدل في المقهي .. ويكتب الاب رسالة إلى ولده يضمنها احساسه وايمانه بهذا الحدث التاريخي .. لم يكن يوسف مباشراً بل مؤمنا بجعل جزء كبير من حوار التمثيلية متعلقا بضرورة التكيف الايجابي مع الواقع الايجابي الجديد ، فلابد من ان تقول الشخصيات الايجابية في التمثيلية اراءها بايجابية وان وجدت مباشرة ، فقد نقلها يوسف باسلوب فني ، باداء

حياتي طبيعي ، ثم ان يوسف كان يراقب فئات الناس ازاء حدث التأميم فوجد ان ليس كل هذه الفئات على يقين بنجاح هذه الخطوة الثورية الكبيرة ، وليس بعد ذلك امر مقبول (من هؤلاء المتشائمين) ان يقتنعوا بحوار او تمثيلية تعلن ثقتها وايمانها الكامل بصيرورة التأميم ونجاحه ..
لنسمع او نقرأ (قصيدة) من اجزاء هذه التمثيلية وهي تعبر عن رأي العامل جبار :

ياحبيبة انا جبار
أذريج من ربيع العمر وردة
ياحبيبة ،
أدزيج من شواطى النهر (سعده)
واگولج اني ياحبيبة
هذاك الحيد جبوري
(أدير الچرخ) ليگدام
أفر (الويل) أعدل الميل
اضب البرغي والمفتاح
ادير الدهن فوگ البستم التعبان والمرتاح
وخلي الخير يتزايد ضوه وقداح
ياحبيبة انا جبار
ازخ مطرة على مطرة

عرگ صافي وانا مرتاح
ياحبيبة ولايهمج
انا جبار ذاك الحيد
!اناغي الآلة والمعمل
أناغي الفالة والمنجل
واصيحن :
ذولة اهلي ، هذا اصلي
عراقي للكشر قطمر !
وانت .. ؟
انت هم مثلي عراقية ،
تگولين الارض ارضي
النفط نفطي .. !

وكان المشاهدون منقسمين ، بين مؤيد ومعارض وكذلك النقاد فئة منهم غمزت في يوسف ، وفئة عظمت في يوسف انحيازه للتاريخ الجديد الذي يبشر به التأميم وماوراء التأميم ، لكن ما ان نجح التأميم وانتصر فيه المارد العراقي على الاجنبي وما ان اعيد عرض هذه التمثيلية في التلفزيون بعد انتصار التأميم الذي هو المضمون الجوهري في التمثيلية ، حتى تراجع خصوم يوسف عن ارائهم (المتشائمة) في التمثيلية ، وقالوا في انفسهم ان يوسف

يسبقنا في وعيه للتاريخ ، ولات ساعة الندم ..

● ● ●

كثيرون يخطئون في يوسف وهؤلاء من الحساد ..
وكثيرون يرونه على غير صورته ، او فلسفته وهم من طراء الفن ..
اما المنصف الوحيد له ، واعني به التاريخ فهو وحده فوق الشبهات لأن التاريخ المنصف هو من صنع الجمهور ، جمهور احب يوسف فبجله واحب اشراقته وهو يطل على مسرح او شاشة او شارع من الشوارع . والجمهور لايخطىء حين يرفع فنانا عبر عن الشعب بكل عنفوانه وعذوبته في التاريخ ..

○ الحلم والحرية !

هذه المرة كان حالما ، فسألته :

س ـ ويقال انت مناور .. ؟

ج ـ كما في كرة القدم !

س ـ كيف تكتب دعاء على اعدائك .. ؟

ج ـ اللهم اهدهم سواء السبيل !

س ـ أيهما اكثر شهرة : فنك ام اسمك ..؟

ج ـ ارتبط بعض ببعض ..

س ـ هل هناك فنان يحب العبودية ..؟

ج ـ مجنون او شاذ !

س ـ ايهما اقوى .. الخوف ام الحرية ..؟

ج ـ الحرية طبعا ..

س ـ لو رسمت لوحة زيتية ..؟

ج ـ لرسمت الحب ..

س ـ لو غنيت اغنية .. ؟

ج ـ لغنيت لفيروز ..

س ـ لو مثلت في باخرة .. ؟

ج ـ لمثلت عطيل ..

س ـ ماذا يفعل فيك الندم ..؟

ج ـ يطهرني !

س ـ هل حلمت بشكسبير .. ؟

ج ـ حلمت به وشاهدت قبره واثاره ومسرحه في ستراتفورد .

س ـ يايوسف ماهذه الدنيا .. ؟

ج ـ مسرح كبير يؤدي الناس ادوارهم فيها ..

س ـ من اي الطرق تاتي اليك السعادة .. ؟

ج ـ من الطرق غير الملتوية ..

س ـ كم مرة احببت ..؟

ج ـ كثيرا ..

س ـ واين رسوت ..؟

ج ـ زوجتي !

عزيزي ..

من وجهة نظري لاعتقد ان لي خصوما بالمعنى المعروف للخصومة لكن الذي حصل ويحصل ان لي اراء لاحيد عنها في فهمي للمسرح وللفن بصورة عامة وهو جزء من تصوري للحياة التي يجب ان تكون زاهية نظيفة وكريمة ، فلذلك ومن هنا تنشأ الخصومة ضدي ، فانا مثلًا .. لاقبل بمسرح يجر الانسان الى الهاوية الى الدرك في التفكير والتصور اللاانساني .. ومن يقف ضد فكري هذا فهو خصمي اللدود ، اقف منه مكافحاً ومقاتلًا ، وسلاحي الذي اتوسل به هو المسرح نفسه : الفن النابع من شرف الانسان وكرامة الوطن ...

[من رسائل العاني الى المطبعي]

الفصل الثامن

محاضر
بطراز
المحاضرين النفسانيين .. !



نعم .. يايوسف إن الحياة مسرح كبير ، فليمثل كل منا دوراً في رحابه ..!

منذ طفولته كان مشحوناً بالاسرار ، كان يعيش حالات التعبير عن نفسه باية وسيلة من وسائل التعبير عن الوجدان ، في البداية تكلمت خشبة المسرح عن اسراره ، فنقلت جزءاً من حركته التلقائية في الحياة ، لكنها لم تنقل العاطفة كلها ، فذهب الى الشعر فوجد انه مصاغ في احد فنونه : (المنولوج) وهو ايضاً مثل خشبة المسرح ، حركة ، لكنها حركة تعبر بالالفاظ ويصيغ الالفاظ عن مكنوناته ، ويكتب المنولوج باسلوب فكاهي ، يجمع فيه النكتة اللاذعة بالظرافة اللاذعة ، وفي يوم كان يسميه طلبة كلية الحقوق ، الشاعر اللاذع ، لانه كان يذيع لهم قصائد في نقد الاوضاع بوسيلة الضحكة الهادفة ، وفي يوم كان في حفلات كلية التجارة يكتب القصيدة اللاذعة الراقصة ، يهز المجموع بوتيرة اللحن اللاذع ، فسماه الاساتذه : (المنولوجست) ، اذ يحكي قصص الحال بـ (الشعر الشعبي) مملوءاً برموز النقد الشعبي ، وكانه كان يرسم صوراً كاريكاتيرية ، يفجر فيها الكبت الشعبي وهموم الناس في امل جديد ووعد جديد ..

وفي غرفة المكتب من خان عمه مارس المتعة في كتابة الزجل والموال الزهيري ويشرح فيها حال الناس في الخان ، مرة يصف (حمالا) ونادل مطعم وسائق (ربل) وشرطياً ، ومرات عديدة ،

يذهب (بشعره الشعبي) الى متوسطة الكرخ يصف احوالهم وعاداتهم وشيئاً في نقد (المدرسين) الكسالى ، ويذكرهم بنشاط (الحمالين) في الخان رغم فقرهم ، ومرة عرض على الشاعر (عبد الحسين الملا احمد) وكان يعمل (كاتباً) في الخان ، قصيدة من عشرين بيتا يقفي فيها قوافي الرصافي ، فشطب كاتب الخان عشرة ابيات منها لانها بدون وزن ، واسقط اثنين منها ، قال له : (يوسف ، انت تجد نفسك في الشعر الشعبي) ، فلم يكترث بنصحه فواصل القريض ، لكنه قريض لايصلح للنشر ..

● ● ●

كان شغوفاً بقراءة القصة كحال رفاقه في اواسط الاربعينات ، قرأها في مجلة الرواية والرسالة المصريتين ، واقتنى القصص الروسية القادمة من بيروت والشام ، والى امد قريب كان يحتفظ بمجموعة قصص مترجمة بعنوان (امطار) وهي قصص انكليزية قامت السيدة امينة السعيد بترجمتها الى العربية ، وكان يوسف قد قرأها في الاربعينات ، ومن هذه وغيرها ، ومن الصور المأساوية التي كان يراقبها ، مال الى كتابة القصص ، نشر بعضا منها وبقي اخر في خزانة كتبه ومحفوظاته ، واول قصة نشرها كانت بعنوان (شجرة السرو) في الاربعينات في جريدة (البادية) كان صاحبها زميلا ليوسف اسمه (محمد المعتصم) من اهالي سوق حمادة بالكرخ ، وقد اغلقت الجريدة بعد عددها الثاني ، ولم تكن شجرة السرو قصة بالمعنى الدقيق لفنية القصة ، انما كان فيها قص لحكايات حب عاشها يوسف في بيروت سنة ١٩٤٥ يوم كان يتلقى العلم في الجامعة الاميركية ، وكتب قصة اخرى اسماها (حليمة) سنة ١٩٦٠ اطعمها بعض هواجسه وافكاره ، وعرضها على (كمال نادر) لنشرها في احدى المجلات وفقدت منه لسبب من الاسباب ، وقد ورد جزء من هذه القصة في سياق مسرحية (الشريعة) .. وعرف يوسف منذ بداية الخمسينات بكتابة (الحكايات) وهو لون ادبي يعتمد الحركة

في تتابع الأحداث ، يسرد ويجسد الحدث ، يقص الحدث ويمزجه بالانطباع الشخصي ، حتى يجسد فيه الوصف ويجسمه تجسيماً دراميا ، لذلك فان حكاياته لاتصلح الا لاعمال درامية للمسرح والتلفزيون والسينما ، وربما صارت هذه الممارسة في هذا اللون الادبي (تعبيراً) عن حالات كثيرة عاشها في الماضي ، وشخصيات كثيرة تعرف عليها ، ينوي يوسف **اصدارها في كتاب :(اساطير عراقية من الواقع) وبعضها في** كتاب اخر : (كي لاتموت الذكريات) ، ويقع جزء آخر في كتب اخرى مازالت تنتظر الطبع ..

مخطوطات

. وتشغله ، هذه الايام ، مسألة جمع كتاباته وتأليفها في كتب ، اذ يقضي الليل كله في تبويب وكتابة المناهج والفهارس لكل ماكتب خلال خمسين سنة ، ونظمها بحسب موضوعاتها حتى تجاوزت عشرين كتابا ، من بينها : سيرة ستين صديقا كان يحلق في قلوبهم او هم حلقوا في قلبه ..

اجمل مارأيت في سيرة يوسف ، حنانه حينما يتسرب الى الماضي ، وينسكب برقة ودفء على شخصية زوجة برشت (هيلينا فايكل) ، تلك التي الهمته المسرح الملحمي ، منذ اول لقاء معها قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وزاد حنانه اليها بعد لقاء ثان معها في سنة ١٩٦٨ ، كان يتحدث اليها كتلميذ عندما استبدت به شهوة المسرح العالمي ووجد في هيلينا ذروة هذا المسرح ، وتحدث اليها كرائد لخصائص المسرح المحلي عندما وجدت فيه هيلينا تحديا لآلام عديدة ، يخترقها زمنا ، ويبني فيها المسرح لبنة لبنة ..

شاهد الاعلان الكبير عن مسرح برشت وهو يخطو خطواته الاولى في برلين ، ورأى الناس تتحدث عن برشت بما يشبه الضجة وتساءل : كيف الوصول الى (البرليمزانسامبل) هذا المسرح الذي ولدت فيه نظريات (فن التمثيل وفن المشاهدة وفن التغريب ..) فجاءه الجواب : عن طريق شريكة حياته هيلينا .. وعن طريقها فقط تتعلم كيف تولد مبادىء المسرح النظري والعملي ، ولكن كيف يصل الى هيلينا .. فهذه ليست شخصية اعتيادية ، وغير مستعدة لان تلتقي بمسرحي محلي جاء من العالم الثالث ، تردد .. لكنه لم يصبه يأس ، هناك فقط حاولوا ان يقربوه الى مسرح (البرلينرانسامبل) وربما يشاهدها تمثل دوراً من الادوار ، وشاهد اول مسرحية تعرض في هذا المسرح بعنوان : (خوف وبؤس الرايخ الثالث) وكان

لهيلينا دور فيها ، كانت تخاطب اشخاصا في الهاتف ، وكان يوسف لايملك الا ان يصيح : هذا هو التمثيل ، هنا ردد مع نفسه : هل كنا في السابق مسرحيين نكتب ونمثل الادوار : (وكان علي ايضا ان امسح من ذهني كل ماتعلمته من اوليات التمثيل ومبادىء الاخراج الساذجة .. وان ازداد عزما واصراراً على لقاء هذه الفنانة الكبيرة ..) .. فباللقاء بها يتعرف على برشت كله وعلى تاريخه :

● اهلا بشباب العراق ، انا مسرورة !

ـ وهذا حلمي في ان اراك وجها كبيراً ..

● هل من غاية في التعرف على مسرح برشت ..؟!

ـ لانني متطلع ..

● هل تعمل في السياسة ..؟

ـ هي جزء من اعصابنا ، ولابد ان يكون الفن شاملا ..

وبحوار طويل اعجبت هيلينا بيوسف ، فدعته بعد الحوار الى مائدتها ، وفجأة تستحيل هيلينا الى (ام) كبيرة ليوسف ، يرتجف امامها ، يرتجف وجدانه وقلقه وحبه ، وقدمت له (بربارا) ابنتها : هذه ثمرة برشت ، ومسحت من وجهه (عرقا) تصبب فجأة ، واردفت تقول :

● من اية طبقة انت يايوسف ...؟

ـ من عوائل المدن متوسطة الحالة !

● ابوك ..؟

ـ توفي وانا صغير .. !

● وامك ..؟

ـ توفيت وانا صغير .. !

● ومع هذا كله انت متفائل ـ (لاتهتم ساكون انا امك ، الم تسمع بالام كوراج وابنائها السبعة .. ستكون الثامن .. وكن بعيداً عن احداث المسرحية ، يجب ان تظل حيا لتنشط في مسرح بلادك) كانت هيلينا في هذا الجو الروحي ، تمنحه امتيازاً كبيراً في المسرح ، او انها منذ تلك الجلسة ساعدته على ان يدخل مسرح برشت (مجانا) .. للتحدث الى رجاله والتعرف على فنونهم وتاريخهم ، ومنحته ايضاً حق حضور (البروفات) وكان .. امله .. !

● ● ●

واشبه بهذا الكتاب كتاب معد للطبع بعنوان : (مذكرات حقيبة) .. جعل الاحداث تتحدث عن لسان الحقيبة التي رافقته منذ نشأته الاولى ، بل جعل تاريخه كله في هذه الحقيبة ، وابرز مافيه : معاناة بلا خيبة ، ونضال يشترك فيه جيل بكامله .. وهناك مخطوط آخر بعنوان : (محطات في السينما العراقية) يعيد يوسف السؤال القديم : لماذا ازمة في السينما العراقية ، وهو نفسه يجيب على مثل هذا السؤال بنقد الماضي السينمائي ويوضع البدائل من خلال مناقشات وتحليلات وآراء في افلام عراقية ، وطالما نبه يوسف الى

(امراض) تنخر جسد السينما العراقية ، لكن بدون ان يجد لآرائه آذنا تسمع او يدا تصافحه ، يالمأساة النقد ..

الشاشة الصغيرة

وايضاً اعد للطبع كتابا جديداً في فنون التمثيلية العراقية واسماه (على الشاشة الصغيرة) تحدث فيه في فصل عن اسس علمية لامكانية كتابة تمثيلية تلائم (الذوق الشعبي) عبر الخبرة التي خبرها في هذه الشاشة الصغيرة ، وفي قسم آخر من الكتاب وضع اربعة نصوص لتمثيليات كتبها في الماضي واخذت شهرتها الى الجمهور ولاسيما : رائحة القهوة وثابت افندي ، وهما من حيث الاساس خلاصة لتجربة يوسف في الحياة ..

١ ـ رائحة القهوة :

في مسلسل (بيتنا وبيوت الجيران) .. التي كتبها قاسم محمد ، مثل يوسف دور (قهوجي) ، يمر على الناس ليقدم لهم القهوة ... واثناء ذلك يسأل يوسف قاسم محمد ، ماهي خلفية الرجل ، ماهو ماضيه ، اجابه قاسم : مادري والله .. قال له يوسف : سأروي انا حكايته ارتجالا وفي حدود رسمك للشخصية ، قال قاسم : موافق ..

وافرغوا الاستوديو ، ووضع يوسف في ذهنه ، فكرة حياة هذا

الرجل المأساوية ، وراح يخيكها ارتجالا ويبكي ، واخيراً صور المشهد ، وانتهت حكاية مسلسل (بيتنا وبيوت الجيران) .. ومضى يوسف يكتب تمثيلية (رائحة القهوة) وهي مستوحاة من هذه الشخصية التي وضع خطوطها الادبية قاسم محمد .. كانت التمثيلية تحمل مأساتها وطرافتها في آن واحد ، ويدور جوهرها في فكرة واحدة : اهمية العمل في حياة الانسان بسؤالين يشطران الفكرة من فوق الى تحت : كيف يستطيع الانسان ان يعيش بلا عمل .. ذلك يعني الموت ، وكيف يعيش الانسان بلا حب .. ذلك يعني الفراغ المميت ..

ومن هذا الخيط السحري رسم يوسف في التمثيلية شخصية الام وابنها الوحيد المدلل .. الذي يحوله يوسف الى «رجل» حقيقي من خلال العمل ومن خلال الحب الذي يرفعه في نظر نفسه وفي نظر الناس الى درجات الثقة الكبيرة بنفسه .. ولكن الانسان طاقة وليس مثالا متزنا ، تتأثر وتؤثر في محيطها ، وهكذا حين تقع هذه الشخصية في التمثيلية بين سلوكيات معوجة ، فانها تسقط في الهاوية وتتشكل ماساتها ، لتصبح الحياة في نظرها : سوداء لايرجعها الى حالها سوى الذكرى الجميلة لاجمل ايام العمر والحياة ، وهكذا .. كانت افكار (رائحة القهوة) مؤثرة وممتعة في آن ، وحين حصلت على الجائزة الثانية بمهرجان الكويت التلفزيوني ، صرخ الجميع محتجين ، لان الجمهور رأى في هذه التمثيلية افضل عمل قدم

في المهرجان من حيث النص والتمثيل والاخراج ..

٢ ـ ثابت افندي !

وهذه التمثيلية عمادها رواية تلقاها يوسف من اخيه (عبد الغفور) عن شخص طريف او بلغة المسرح، شخصية طريفة، كان معلما، اكتشف ان اباه قد اخفى عليه ثرواته الطائلة، اخذاً بالحكمة التي تقول: (ان الفراغ والشباب مفسدة للمرء ..) والمعلم شاب كان يحلم بهذه الثروة ليحقق نزواته في السفر الى آخر الدنيا والعبث بالحياة واللذة في كل شيء، وعندما اكتشف الثروة حقق حلمه العابث، لكنه فجأة اصطدم بان ثروته اوشكت على النفاد، وحياته غدت مقفرة لاطعم فيها، فعاد الى موقعه السابق يبحث عن حياة عائلية مستقرة !

ثابت افندي جزء من موروثاتنا القديمة اراد يوسف من خلالها ان يقول ان هذه الموروثات ماعاد لها مكان، الان، الا نادراً، ثم صور الشخصيات في هذه التمثيلية التي احبها يوسف وارادها ان تظهر في ثابت افندي، صادقة مقنعة، وكان هدفه من كل ذلك ان تكون هذه التمثيلية عملا فنياً غير تقليدي، يمتزج فيه الحلم بالواقع وتتحول الحقيقة الى اغنية تشيع في النفس، وقد وفق في اختيار المجموعة التي مثلتها ووفق هو بدور الاب (اب ثابت افندي) .. وفي مهرجان

التلفزيون العربي الذي اقامه اتحاد الاذاعات العربية سنة ١٩٨٣ فازت التمثيلية بجائزة افضل سيناريو ، وفازت هديل كامل بجائزة افضل ممثلة واعدة ..

مؤلفاته

وله ستة كتب مطبوعة ، عدا كتبه التي تحتوي على بعض نصوصه المسرحية ، وكنا قد تحدثنا عنها سابقاً ، والملحوظ في كتبه المطبوعة ، ان يوسف لايحاول انّ ينظر في مفاهيمه الفنية ، ولايحاول ان يكتب نظريات فيها ، وانما ترى في كل كتاب ، جهداً عمليا من جهوده الفنية ، اما شارحا او مفسراً او ناقلا لتجربته ، حتى ظهرت الكتب كلها وكأنها حديث طويل عن تجربته الفنية ، رغم تقاطعه بعناوين عديدة ومحطات استراحة ، ورغم ان هذا الحديث ينتمي الى حقب تاريخية ، متباعدة او متقاربة فيما بينها ..

● ● ●

اول كتاب طبعه من هذه الكتب ، كان بعنوان : (شعبنا) وذلك في سنة ١٩٦١ ، وقد اهدى الكتاب (الى الشعب العراقي العظيم) وزين غلافه بلوحة سقوط الجنرال (مود) رمز الغزو البريطاني للعراق ، ومضامين هذا الكتاب هي لوحات عن نضال شعبنا خلال ثوراته وانتفاضاته ، كان يوسف قد قدمها بصيغ التمثيليات الاذاعية .. التي تجمع بين

الوثيقة والرواية والمشاهد التمثيلية من دار الاذاعة العراقية في سنة ١٩٥٨ ، وكانت تتصدر هذا البرنامج مقدمة اذاعية ثابتة تقول : لقد كتب شعبنا البطل ، تاريخه بالدم والنار ، وناضل طويلا من اجل حقه المغتصب وحريته السليبة ، وفي هذا البرنامج القصير اقدم لك ايها المستمع ، صوراً من تلك البطولات الفذة ، والمواقف الوطنية الرائعة التي وقفها شعبنا البطل وناضل من أجلها .. ولم يثنه عن النضال ، رصاص او سجن او تعذيب او اضطهاد ، فناضل وناضل حتى حقق ثورتنا الشعبية الرائعة .. وفي هذا الكتاب كان يوسف امينا على تاريخه ، وامينا على مهمته الاذاعية .

● ● ●

وطبع كتابا في القاهرة سنة ١٩٦٧ بعنوان : (بين المسرح والسينما) وفيه قسمان ، قسم المسرح : تناول فيه تطور المسرح العراقي عبر انطباعاته وتأثراته ، وتطور المسرح العربي في اهم قممه ، وعلى ابواب المسرحين ، العراقي والعربي ، يرسم اسئلة ، هي في جوهرها ، اجوبة عن غياب المسرح الطليعي ، الجماهيري الذي يؤازر الحرية وتطلعات الجمهور في ان تكون الحرية مطلبا مهما لنشوء مسرح مؤمن برسالة الجمهور ، وفي القسم الثاني من هذا الكتاب ، والسينما عنوانه ، كان يوسف يضع امامنا ، منهجا محدداً ، لسينما الجمهور ، ويجمع منهجه بين المتعة الهادفة والفكرة

الهادفة ، ويدعم نهجه هذا بنقاشات ، ونقد لافلام معينة وندوات سينمائية معينة ، في الكتاب دعوة نبيلة في التخلص من سينما الخلاعة ، من التهريج من اساليب الرخص التجاري .. !

وفي سنة ١٩٦٨ اصدر كتابا عن (الفيلم الوثائقي) يحمل شعار مهرجان الفيلم الوثائقي الذي يعقد كل عام في مدينة «لا ييزغ» وهو : (افلام العالم من اجل سلام العالم) ، وهناك بالمانيا الديمقراطية تتجمع افلام عشرات الاقطار وعشرات السينمائيين المتخصصين بالفيلم الوثائقي والقصير ، وتدور ندوات ودراسات ويحضر عدد كبير من مخرجي هذا النوع من الافلام ، وكان يوسف من بين هؤلاء ، ناقداً ، مراقباً ، مشاركاً في لجان .. فقد تعرف على رواد السينما الوثائقية في العالم ، وشاهد افلاما كانت علامات بارزة في الفيلم الوثائقي لسنة ١٩٦٧ ، ودخل في جدل وصراع في عدد من ندوات المهرجانات ، وكوّن من كل ذلك ، افكاراً وانطباعات سطرها في هذا الكتاب ، معتمدا في كتابتها على فكرة فنية اطلقها (سيكافرتوف) قديما تقول : (ان عملية الخلق سعادة ، والانتاج المستمر سعادة .. لكن الانتاج السيء تعاسة ، وعدم الانتاج تعاسة ايضاً) .. ولهذا فانه حين دعي الى مهرجان لا ييزغ : (خامرني شعور غامر بالفرحة والاعتزاز ، دفعني الى التفكير مسبقا بتثبيت انطباعاتي

وآرائي فيما ساشاهد في كتاب يظل هو الاخر وثيقة امينة متواضعة ، ودالة لفنانينا العاملين في حقل الفيلم الوثائقي والقصير تشير الى السبيل الصائب .. سبيل الانطلاق والخلق والابداع المتجدد ..) .. وفي (١٨) موضوعا وهو كامل فهرست الكتاب ، يخرج يوسف بفكرة ، ان الفيلم الوثائقي يتحدث بشرف ، وعمل المخرج في هذا النوع من الافلام لايقل عن عمل ـ البحاثة ـ الدائم ان لم يزده بقدراته على الخلق المستمر ..

● ● ●

وكتاب آخر له بعنوان (هوليوود بلا رتوش) قد تأخر صدوره بالقياس الى قدم بعض مواده التي شغلت بدايات النقد السينمائي الجاد الذي كتبه يوسف منذ بداية الخمسينات في عدد من الصحف والمجلات العراقية ، ومواده كثيرة شملت ارجاء السينما في العالم ، فقد كتب نقدا عن السينما العربية والاميركية والانكليزية والفرنسية والايطالية وبعض افلام اميركا اللاتينية ، ونقدا عن مختلف المدارس والتيارات السينمائية ، وكان من المقرر ان يطبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٦٦ ، فاعاقه عن الطبع والنشر ظرف من الظروف ، ولما زال المانع ، قدم الكتاب الى وزارة الثقافة والاعلام ، فطبعته طباعة جميلة بـ ١٦٠ صفحة ، صدره يوسف باهداء (الى كل من امسك بالقلم وكتب كلمة صدق وخير ومحبة ..)

وبمقدمة تكشف عن ثقافة يوسف السينمائية الواسعة ولاسيما ثقافته في متابعة افلام هوليود ، مدينة السينما الاميركية الشهيرة ، على ان كتابه في هوليوود يضم الشواهد لصناعة وفن السينما في هوليود ، اكثر مما يعطي مميزاتها بشرح عام .. لكنه على كل حال جاء يملأ فراغا سينمائياً ، في فترة ساد فيها النقد السينمائي الانطباعي المجرد ..

● ● ●

وفي سنة ١٩٦٧ طبعت له دار الفارابي ببيروت ، بدايات فهمه للمسرح وبدايات نصوصه المسرحية في كتاب اراد يوسف ان يكون بعنوان : (التجربة المسرحية : معايشة وانعكاسات) فكان كتاب التجربة الاصيلة في حلمه الكبير ، يوم بدأ ممثلا طفلا يروي حكايات الناس على (دكة) الجيران ، ويوم انشأ خيمة في بساتين بغداد يؤدي فيها مع رفاقه ادوار المسرح المتجول ، ويوم رمى الجاه والوظيفة في جانب من جوانب الخمسينات ، ليتشكل في مسرح وطني ويذيع من على شرفاته : اليوم امنت ان المسرح ليس خشبة ، وانما منبر حي ، يدغدغ عاطفة ، ويستلهم عاطفة ويفجر عاطفة ، وكان كتابه هذا رحلة عميقة مع الذات ، مع الجمهور الذي احبه ، مع ناس المدن الذين حلموا ان يبقى يوسف معهم ، شجرة خضراء .. وقد اعجب الناشر في دار الفارابي بهذه الرحلة في يوسف . فنثر عواطفه في صفحات اذ قال مما قال : ويوسف العاني هو

الممثل والمؤلف المسرحي والمخرج ، رافق المسرح العراقي منذ بداياته الاولى لتكونه الجدي ، بل يمكن القول ان يوسف العاني بالذات ـ بموهبته متعددة الجوانب ، وباتجاهه الواقعي الاصيل ـ هو احد اهم عناصر هذا التكوين الجدي للمسرح العراقي الحديث منذ اواخر الاربعينات وحتى يومنا هذا .. اما يوسف نفسه فيقول عن هذا الكتاب : هو حصيلة تجربة ذاتية ، وتجارب من الاخرين ، انه محصلة لعطاء الانفع والارفع والاحسن على صعيد مسرحنا العراقي والعربي ومسرح الانسان في كل مكان .. وقد اهدى الكتاب الى زوجته التي كانت ومازالت عونه لتجديد تجاربه الفنية .. والى ابنته (وسن) التي بابتسامتها المشرقة يرسخ ابوها يوسف ثقته بنفسه وتفاؤله بمواصلة العطاء المتجدد .. كان كتابه معايشة في الناس فانعكست تأثيراتها على المسرح ، اللغة والمنبر .

● ● ●

وكان لابد من ان يكون له موقف من الحرب العراقية الايرانية ، مادام هو فنان شعبي يستلهم من الاحداث الكبيرة مادته الاولى في المسرح ، فكان .. كان اصدر كتابا اسماه : (سيناريو لم اكتبه بعد) جمع فيه المواقف في موقف واحد .. ان لابد ان ينتصر العراق ، بل لابد في هذه الحرب ان يكون لنا نحن الكتاب موقع ندافع فيه عن حقنا في الحياة ، بالكلمة

الشريفة الفاعلة ، اما تسميته للكتاب بسيناريو لم اكتبه بعد ، فاكبر الظن ، ان يوسف جمع في كتابه هذا كل كلمة او مقالة او لوحة كتبها منذ بداية الحرب ، وجعل في كل صفحة من صفحاتها ، مادة فنية ، يمكن ان تكون في المستقبل (سيناريو) لفيلم او مسرحية سيكتبها التاريخ ، ويبدعها شعب العراق وفنانوه ..

● ● ●

ويعلن يوسف في بعض كتبه الاولى ، عن كتب جاهزة للطبع او معدة للطبع ، او هي في طريق النشر ، لكنه يتراجع عن اصدارها ، وربما كانت فكرة هذا الاعلان ، هي فكرة حالمة حسب ، اذ كان بعض جيله او الجيل الذي سبقه ، يعلنون عن احلام مشاريعهم الكتابية ، ولكنهم يبقون في حدود الحلم ، والافاين هذه الكتب التي اعلن عنها يوسف ، ككتاب (ياسادةِ ياكرام) او (ليطة ومسرحيات اخرى) و(الجرح الخفي) او غيرها ..

● ● ●

المحاضر

واضافة الى كلماته المكتوبة المطبوعة ، فثمة كلمات اذاعها على الهواء ، وهي كثيرة ، تخص المسرح ونقده والسينما في آفاقها النقدية ، وكان يذيعها بالمحاضرة الشفوية في اكثر من

موقع ومكان وزمان ، وكان يحاضر بمميزات :
١ ـ جعل المحاضرة : حواراً مفتوحاً ، اي انه يلقي المحاضرة دون ورق ، حتى لو كان في مكان غير مكان بلده العراق ، وحتى لو كان الجمهور من طليعة مثقفة كله .
٢ ـ يتفرس الوجوه حالما يجلس على منصة المحاضرة ، متعرفاً على نوعية الجمهور والى حد ما ، على مستوياته الثقافية ، عن خبرة في سيكولوجيا الجمهور !
٣ ـ تغيير موضوع محاضرته من حال الى حال ، اي من عنوان الى عنوان آخر جديد وعلى وفق التغيرات المفاجئة في المكان والزمان ..

● ● ●

في سنة ١٩٧٧ دعي الى حضور مهرجان المسرح التونسي بتونس ، وهناك كلفه المسرحيون بالقاء محاضرات في تونس وسوسة ونابل ، فاختار ان يلقي محاضراته بحسب طبيعة واجواء تاريخ هذه المدن التونسية .. وحين ذهب الى سوسة ، شاهد الناس يتظاهرون في غليان شعبي وفي تظاهرات هادرة ، ولما هدأ الناس جاء به (المرافقون) الى قاعة سوسة ، وكان عليه ان يلقي المحاضرة ، وكانت بعنوان (تجربتي المسرحية) لكنه ابدل الموضوع بموضوع جديد ، حينما شاهد جزءاً من المتظاهرين يحضرون القاعة ، فبدأ يحاضر تحت عنوان (مسرح الشارع) يربط فيه بين الاحداث المستعرة في مدينة

سوسة وبين المسرح .

وانتقل الى مدينة نابل ، وكان يعد محاضرة في ذهنه ، عن اشكالية التأليف في المسرح العربي ، لكنه لما راى في القاعة جمهوراً لايستوعب موضوعه (وهم من شابات وشبان في اعمار الربيع) قال ، حالا ، لمرافقه : (قل لهم .. ان موضوع محاضرتي هو : مسرح الشباب) ، فشرع ، حالا ، يتحدث لهم عن حركة الشباب في المسرح ، وهكذا فهو بحكم مؤهلاته النفسية التي فطر عليها ، في بيت شعبي وفي محلة شعبية وفي اجواء سياسية شعبية ، قادر على (تطويع) المكان الى الزمان وتطويع الفكرة لاي موضوع جديد ..

● ● ●

والمهم ، انه لايجتر الحياة كما كانت الحياة ، ولايقتبس عمله من كتب ، بحجة انها مصادر ، انما كان يحاضر على التلقائية ، بحثا عن حقيقة ، عن وجوه تبتسم للغد ، فذاك هو قدره الذي ربح المعركة والحياة في آن واحد ..

الماضي والحاضر !

كانت المودة حينما اجاب هادئاً :

س ـ وجه سؤالا الى خصومك في الفن ..؟

ج ـ ابحثوا في الصخر من اجل ان تجدوا الحقيقة فالفن حقيقة تنبع من اعماق الدنيا .

س ـ وجه سؤالا الى خصومك في السياسة ..؟

ج ـ لماذا لاتتقدموا لنتفاهم ونتجادل ونضع الوطن والحق والعدل امامنا ونبدأ ، لماذا ؟

س ـ ماذا تقول في شخص يحب ماضيه اكثر من حاضره ..؟

ج ـ قد يكون حاضره قد اختنق به فهرع الى ماضيه او يكون قد تخلف عن حاضره فلجأ الى ذاك الماضي !

س ـ هل عندك عقد في الماضي ..؟

ج ـ ليست عقدة وانما عندي احساس بفراغ حنان الام التي فارقتها صغيراً ..؟

س ـ وجه سؤالا الى التلفزيون ..؟

ج ـ لماذا لاتكون التمثيلية العراقية هي المادة الاساس على الشاشة ؟

س ـ في جردة حسابية ، اربحت ام خسرت ..؟

ج ـ ربحت كثيراً ..

س ـ انقد كلية الفنون الجميلة ..؟

ج ـ لماذا لاتقدم المسرحيات المنتجة من قبل الكلية على نطاق اوسع ليشاهدها الجمهور وليرفع بذلك مستوى المشاهدة !؟

س ـ لو عاد يوسف العاني شاباً ..؟

ج ـ لبدأ كما بدأ ، لكنه اضاف جوهر وخلاصة تجربة عمره الى تلك البداية !

س ـ من سيرث مسرحك ..؟

ج ـ المسرحيون الذين يستحقونه شرعا وكل الجماهير التي آزرتني !

س ـ كم مرة في اليوم تقفز من نومك ..؟

ج ـ بعد كل اكلة دسمة وثقيلة اتناولها قبل نومي ..!

س ـ هل توصي بكتابة شاهدة على قبرك ..؟

ج ـ اوصى الناس ان يكتبوها فهم احق مني في قول الحق ..



الفهرست

٩٢٧و٩١٠٢٨
م ٦٢٨ المطبعي ، حميد
يوسف العاني/تأليف حميد المطبعي
. ـ بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩٥ .
ص ، ٢٤ سم : ـ (موسوعة المفكرين والادباء العراقيين ، ٢١)
١ ـ العاني ، يوسف (ممثل ومخرج) أ ـ العنوان ب ـ السلسلة
م . د
١٩٩٥/٤٣

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
بغداد ٤٣ لسنة ١٩٩٥

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



السعر ١٥ ديناراً
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة